بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

من قوله تعالى"الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب" الآية ١ إلى قوله تعالى"وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا" الآية ٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

سورة الكهف وهي مكية، روى الإمام أحمد عن البراء -رضي الله عنه- يقول: قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة -أو سحابة- قد غشيته، فذكر ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((اقرأ فلانُ، فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن))[١]، أخرجاه في الصحيحين، وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير -رضي الله تعالى عنه- كما تقدم في تفسير سورة البقرة.

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال)) [٢] **رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي، ولفظ الترمذي: ((من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف))** [٣]**، وقال: حسن صحيح، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين))[٤]، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه عن الحاكم، ثم روى البيهقي بإسناده أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قرأ سورة الكهف كما نزلت كانت له نوراً يوم القيامة))[٥].**

حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه-: ((من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال))، وفي رواية أخرى: ((من قرأ))، وذكر عشر آيات من آخر السورة، وفي الرواية الأخرى: ((عشر آيات من آخرها))، يحتمل أن يكون المراد بقرأ أي: حفظ، ويحتمل أنه مجرد القراءة.

يقال: قرأت هذه السورة، بمعنى حفظتها وعرفتها وضبطتها وأتقنتها وما أشبه ذلك، ولهذا يقال للقراء: الحفاظ سابقاً وأهل العلم، فلان قارئ، فلان عالم، فلان من القراء، وليس المراد الذين يقرءون، فإذا قيل لأهل

---

[١] - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف (١٩١٤/٤)، برقم: (٤٧٢٤)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة (٥٤٧/١)، برقم: (٧٩٥)

[٢] - رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (٥٥٥/١)، برقم: (٨٠٩).

[٣] - رواه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف (١٦٢/٥)، برقم: (٢٨٨٦)، ولفظه: (من قرأ ثلاث آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال).

[٤] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (٣٩٩/٢)، برقم: (٣٣٩٢).

[٥] - السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الجمعة، باب ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها، (٢٤٩/٣)، برقم: (٦٢٠٩).

القرآن: القراء فهذا أقل من الحفظ وإلا فالزمن السابق السلف -رضي الله عنهم- إذا قالوا القراء فهم أيضاً أهل العلم وليسوا فقط أهل الحفظ.

والأحاديث الواردة في فضل قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة هنا قال: ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين))، وفي بعض الروايات: ((زيادة ثلاثة أيام))[٦]، وفي بعض الأحاديث ما بينه إلى مكة[٧]، وغير هذا مما صح وقد ذكر.

ويوم الجمعة يبدأ من بعد طلوع الشمس ولذلك قال: ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة))، فلو قرأها ليلة الجمعة فإن ذلك لا يصدق عليه؛ لأن اليوم يبدأ طلوعه من الفجر، من قرأها قبل طلوع الشمس فإنه قرأها يوم الجمعة، أو بعد طلوع الشمس إلى ما قبل الغروب فإذا غربت الشمس انتهى يوم الجمعة، لكن لا يشترط أن تكون القراءة قبل الصلاة، وإنما المقصود أن يقرأ.

بسم الله الرحمن الرحيم

**{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا }[الكهف:١-٥]، قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها فإنه المحمود على كل حال وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد -صلوات الله وسلامه عليه-، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بينا، جلياً نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين ولهذا قال: {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا}، أي: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا ميلاً بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال: {قَيِّمًا}، أي: مستقيما {لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ}، أي: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة، {مِنْ لَدُنْهُ}، أي: من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد، {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}، أي: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح، {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}، أي: مثوبة عند الله جميلة، {مَاكِثِينَ فِيهِ} في ثوابهم عند الله -وهو الجنة- خالدين فيه {أَبَدًا} دائماً لا زوال له ولا انقضاء، وقوله: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب في قولهم: نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله، {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ}، أي: بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه، {وَلَا لِآبَائِهِمْ}، أي: لأسلافهم {كَبُرَتْ كَلِمَةً}، هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام

---

[٦] - رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الجمعة (٤١٧/١)، برقم (١٠٤٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب صلاة الجمعة (٧ /١٨)، برقم: (٢٧٧٩).

[٧] - رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣ / ١١٢)، برقم: (٣٠٣٨).

لإفكهم ولهذا قال: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال: {إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}.

قوله -تبارك وتعالى-: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا}[الكهف:١]، أي أن الله -تبارك وتعالى- جعل هذا الكتاب مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، فليس فيه اعوجاج ولا زيغ ولا ميل، وفسر {قَيِّمًا} بالمستقيم، {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا} كما قال ابن كثير -رحمه الله-: لم يجعل له اعوجاجاً وزيغاً وميلاً، ليس فيه عوج لا في ألفاظه ولا في معانيه، فألفاظه في غاية الفصاحة والبلاغة والكمال، ومعانيه كذلك أيضاً لا تجد فيها عوجاً فهي في غاية الكمال حيث تضمنت ألوان الهدايات التي يحتاج إليها الناس، فهو مستقيم في لفظه ومعناه.

وبعض أهل اللغة يقول: إن العَوج بفتح العين، هو الأجسام المحسوسة، والعِوج بالكسر في المعاني، ولكن هذا ليس بمطرد.

وبعضهم يقول: إن ما كان له ظل مما ينتصب كالعود والجدار يكون عَوجاً بفتح العين إذا كان فيه ميل، وما عدا ذلك يقال بالكسر العِوج، هذا القول أخص من الذي قبله.

{قَيِّمًا}، أي: مستقيماً، هذا هو المشهور الذي عليه الجماهير من المفسرين سلفاً وخلفا، والذي لا عوج فيه يكون مستقيماً، فهذا تأكيد لما قبله، فقد نفى عنه العوج، {وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا} وهذا نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فليس فيه عوج بوجه من الوجوه لا في اللفظ ولا في المعنى، ومعلوم أن النفي إذا جاء في صفات الله -عز وجل- أو في صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- أو في القرآن فإنه يتضمن ثبوت كمال ضده، فإذا قال الله -عز وجل- عن نفسه: {لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ} [سورة البقرة: (٢٥٥)] فإن هذا يتضمن ثبوت كمال حياته وقيوميته، وجاء من صفات النبي –صلى الله عليه وسلم- {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [سورة التكوير: (٢٤)] وفي القراءة الأخرى {بظنين} من الظن والتخرص، على هذه القراءة هذا يدل على ثبوت كمال تيقنه وتثبته وضبطه وصحة ما يبلغه، وقل مثل ذلك أيضاً في القراءة الأخرى "بضنين" يعني ببخيل.

فقوله: {قَيِّمًا} يدل على أنه لا اعوجاج فيه أصلاً لا مما يبدو للناظر فيه ولا مما يخفى عليه، فلو قلت لك: هذه السارية هل هي مستقيمة أو لا ؟ تقول: نعم مستقيمة، لكن لو أردت أن تقيسها قياساً دقيقاً فقد يوجد فيها شيء من العوج لا يبدو لك لأول وهلة، أما القرآن فقال الله -عز وجل- عنه بعد أن نفى عنه العوج {قَيِّمًا} فليس فيه عوج لا ظاهر ولا عوج خفي، وبعض أهل العلم يفسر القيّم فيقول: القيم بمصالح العباد الدينية والدنيوية، وبعضهم يقول: إن القيّم المهيمن، فهو قيم على الكتب التي كانت قبله ومهيمن عليها، ولكن القول الأول هو الذي عليه الجمهور، والله تعالى أعلم.

قوله: {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [سورة الكهف: (٢)]

{مِن لَّدُنْهُ}، من عند الله –عز وجل-، {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} هذه الآية تضمنت شروط قبول العمل الثلاثة، فالأول {وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}، فالإيمان هو الشرط الأول، فلو أن

الإنسان عمل عملاً ما يريد وجه الله -عز وجل- وموافقاً للسنة لكنه غير مؤمن، فعمله غير مقبول منه، لأن الله -تبارك وتعالى- يقول: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [سورة الفرقان(٢٣)].

ولا يكون العمل صالحاً حتى يكون خالصاً صواباً يتبع فيه ما شرعه الله -عز وجل- ويتبع النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذه الآية تضمنت شروط قبول العمل الثلاثة.

وقوله: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [سورة الكهف: (٤)]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**قال ابن إسحاق: وهم مشركوا العرب في قولهم: نحن نبعد الملائكة بنات الله**"، ليس هذا فحسب بل يشمل اليهود والنصارى؛ فالنصارى قالوا: المسيح ابن الله، وقالت اليهود أيضاً: عزير ابن الله، ومعلوم أن الاسم الموصول من صيغ العموم، {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، كل الذين قالوا اتخذ الله ولدا فهم داخلون في ذلك، وهذا خاص بعد عام، فالعام هو قوله: {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ}، ويدخل فيهم بجملتهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ولكن ذكْر الخاص بعد العام إنما يكون لمزية تميز بها إما محمودة أو مذمومة، فالمحمودة مثل: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ للّهِ قَانِتِينَ} [سورة البقرة: (٢٣٨)]، وقوله: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [سورة البقرة: (٩٨)] ، جبريل وميكال هم من جملة الملائكة.

والمذمومة مثل هذا: {لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ} يعني: ينذر الكافرين، حذف المُنذَر للعلم به، وهنا قال: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، فهم من جملة هؤلاء المنذَرين لكنه خصهم لشناعة جرمهم كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا} [سورة مريم(٨٨-٩٢)]، فهذا القول في غاية الشناعة، ولهذا ذكر بعض أهل العلم أن المراد قول النصارى؛ لأن النصارى هم الذين اشتهروا بهذا، فقول النصارى إنما هو عار في جبين البشرية.

قوله: {مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ} الضمير يمكن أن يرجع إلى الله -عز وجل- وهذا الذي اختاره ابن جرير، أي: بالله من علم، فلم يعرفوه معرفة لائقة بجلاله وعظمته، فنسبوا إليه الصاحبة والولد قبحهم الله، وكثير من المفسرين يقولون: {مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ} كما قال ابن كثير -رحمه الله-: أي بهذا القول -الذي افتروه وائتفكوه- من علم، إنما قالوه جهلاً وضلالاً ولا حقيقة له بحال من الأحوال، {وَلَا لِآبَائِهِمْ} أي: لأسلافهم.

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم، تخرج من أفواههم أي: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: {إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}.

ومن المعلوم أن الكلمة إنما تخرج من أفواههم ولكن قوله: {تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} فيه تشنيع عليهم وتعظيم لهذا الإفك وتسجيل هذا الجُرم، كما تقول: هذا ما قلتَه بلسانك، فالقول الذي يُرد ويُبطَل ويكذَّب، بحيث إنه لا رصيد له من الواقع، وإنما هو مجرد قول يقوله قائله دون أن يكون له حقيقة يقال فيه مثل هذا.

ولهذا قال الله -عز وجل- في سورة النور في الكلام على الإفك: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة النـــور: (١٥)]، فهي كلمة يقولونها بأفواههم ويسجل عليهم هذا الجُرم الشنيع، يتفوه الإنسان بما لا علم له به دون أن يمت ذلك القول إلى الواقع والحقيقة بصلة.

وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في التبني حينما قال الله -عز وجل-: {وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} [سورة الأحزاب: (٤)]، فهذا القول لا يجاوز الأفواه، لا حقيقة له في أرض الواقع، ومثل هذا قوله -تبارك وتعالى-: {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ} [سورة البقرة: (٧٩)]، ومعلوم أنهم لا يكتبونه بأرجلهم، وقوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [سورة الأنعام: (٣٨)]، وإن كان بعض أهل العلم في بعض هذه الأمثلة يحملها على بعض المحامل، فيقول: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} إن المقصود بذلك حقيقة الطائر، وإن العرب تعبر عن الإسراع بمثل هذه العبارات، فأراد حقيقة الطائر.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال: حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة.

هذا الشيخ هو محمد بن أبي محمد، وهذه رواية ضعيفة.

عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبِروهم بقوله.

النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كانوا من أسرى بدر فقتلهما النبي -صلى الله عليه وسلم- في يوم بدر، فقد قتل النبي -صلى الله عليه وسلم- النضر بن الحارث في بدر حينما أسر، وقتل عقبة بن أبي معيط بالصفراء مقفله -صلى الله عليه وسلم- من بدر إلى المدينة، وقد قال: أأُقتلُ من بين قريش صبراً ؟!.

ويذكر أهل السير أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان قد عفا عن النضر بن الحارث، وأراد أن يطلقه، ثم قال له: لا والله لا تمسح عارضيك عند نساء أهل مكة وتقول خدعت محمداً مرتين، وأهل السير يذكرون قصيدة طويلة لأخته تخاطب فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وتذكره بالعفو، وهي قصيدة جيدة وجميلة ويذكرون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بلغته بعد قتله، يعني: وذكر أنه لو بلغته قبل قتله لوهبه لها، لكنها من حيث الإسناد لا تصح[٨].

فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصِفوا لهم صفته وأخبِروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقوّل فَرَوا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا محمد أخبرنا، فسألوه

---

٨ - انظر القصيدة في السيرة النبوية، لابن هشام (٣ /٣٠٩).

عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أخبركم غدا عما سألتم عنه))، ولم يستثنِ فانصرفوا عنه ومكث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل -عليه السلام- حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدَنا محمد غدا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبرائيل -عليه السلام- من الله -عز وجل- بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله -عز وجل-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ } [سورة الإسراء(٨٥)].

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا}[الكهف:٨].

يقول تعالى مسليا لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- في حزنه على المشركين؛ لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر: (٨)]، **وقال: {وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}** [سورة الحجر: (٨٨)]، **وقال: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}** [سورة الشعراء(٣)]، **باخع، أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا}** [سورة الكهف: (٦)] **يعني: القرآن، {أَسَفًا}، يقول: لا تهلك نفسك أسفا، قال قتادة: قاتلٌ نفسك غضبا وحزنا عليهم، وقال مجاهد: جزعا، والمعنى متقارب، أي: لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.**

كما ذكر -رحمه الله-: هذه المعاني متقاربة؛ لأن أصل معنى البخع يأتي بمثل هذا، فباخع نفسك: أي: تجهد نفسك، تتعب نفسك، تتعب قلبك، تحزن، تهلك نفسك، على هؤلاء، على آثارهم من أجل إعراضهم وتوليهم وتكذيبهم لك، فتتآكل حزناً وأسفاً على ذلك، إنما أنت مأمور بالبلاغ، والله -تبارك وتعالى- هو الذي يوفق من شاء إلى ما شاء، يهدي من يشاء ويضل من يشاء عن علم وحكمة.

وهذه الآية فيها عزاء كبير للدعاة إلى الله -عز وجل- إذا لم يجدوا استجابة من الناس، إذا سلكوا الطرق الصحيحة وبذلوا الجهد الذي يعذرون فيه أمام الله -تبارك وتعالى.

فلا يتآكل الإنسان من الحزن، فإنّ تتابع الحزن على القلوب يضعفها ويعيقها عما هي بصدده من العمل لله -عز وجل- والدار الآخرة.

أما الحزن والإشفاق من الدار الآخرة فهو نافع للقلب غاية النفع؛ لأنه يدفع الإنسان للعمل الصالح، لكن الحزن على هذه الدنيا، والحزن على الأمور الفائتة، والحزن على الولد هذا الذي يضعف القلب، كما أن الأمور العارضة له تضعفه وتفسد قواه ويؤثر ذلك على البدن، إذا تتابع الحزن انكسر البدن وظهر ذلك فيه، وخارت قوى الإنسان واكتأب، وصار لا يستطيع أن ينهض بشيء ولا يستطيع أن يأكل ولا يشرب، وهكذا ما يعرض له من الأمور المفسدة، كالحب مثلا الذي لا يكون لله -عز وجل- الذي هو بمعنى العشق حقيقة، إذا وُجد في القلب مثل هذا أفسده، فأعرض عن الله وتشوش الفكر، وانشغل القلب بهذا المحبوب وصار الإنسان لا ينهض بشيء -نسأل الله العافية-، لا عمل دنيا ولا عمل آخرة، ويجلس مع الناس بجسده، ولكنه معطل

القوى خائر العزيمة، لا يفكر إلا بهذا المحبوب، مسلوب الفؤاد مأسور بهذا البشر الضعيف، وقل مثل ذلك أيضاً في الأمور الأخرى.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار فقال: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الكهف: (٧)]، قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[٩]، ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [سورة الكهف: (٨)]، أي: وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيدا جرزا لا ينبت ولا ينتفع به، كما قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [سورة الكهف: (٨)]، يقول: يهلك كل شيء عليها ويبيد وقال مجاهد: صعيدا جرزا بلقعا، وقال قتادة: الصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات.

قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الكهف: (٧)] "ما" هذه تفيد العموم، ولهذا حمله بعض أهل العلم على أعم معانيه، قال: حتى الحيات هي زينة للأرض، ولكن على كل حال يفهم من السياق {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا }، يعني: مما يستهوي الناس ويجذبهم وتمتد إليه نفوسهم، ويغرهم وما يشغلهم عن آخرتهم، فهذا كله جعله الله -عز وجل- زينة للأرض، كالنبات وما يوجد أيضاً في الأرض، ما يوجد عليها من الأمور التي يقبل عليها الناس وتهواها نفوسهم، كل ذلك، ويدخل فيه العمران وألوان الصناعات، والتجارات والمكاسب، وغير ذلك، ويدخل فيه الأنهار الجارية، والعيون وألوان الثمار وغير ذلك، فكل هذه الأشياء هي زينة لها، ثم بعد ذلك تكون بلقعا.

قوله: {وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا} [سورة الكهف(٨)] كل ما تعبوا وبذلوا فيها، ثمروها وعمروها، وكل المعاني التي ذكرها السلف في الصعيد الجرز متقاربة، فحينما نقول -مثلاً- بأنها مستوية لا نبات فيها، أو حينما نقول بأنه خراب ودمار، تكون خراباً ودماراً، أو هالكاً، أو لا ينبت، لا ينتفع به، يبيد، الأرض التي لا شجر فيها ولا نبات، كل هذا بمعنى مستوية، يسويها الله -عز وجل-، كل ما عليها مما يتهافت عليه الناس هذا كله يستوي بالأرض، وينتهي ويتلاشى، والله -عز وجل- يرينا الآيات لكننا لا نعتبر، فأين ما بناه الأولون؟ أين ما بناه النمرود؟ وأين ما بنته عاد؟ أين الذي بنته إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد؟ أين ما بنوه أين ما شيدوه ؟ كل هذا ينتهي ويتلاشى، أين بيوتهم؟ أين مراكبهم؟ أين صناعاتهم؟ أين تجاراتهم؟ أين الأمور التي تنافسوا عليها؟ كلها قد انمحت واضمحلت، وهذه الفلوات الصحارى هل تظنونها كانت

---

[٩] - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة (٤ / ٢٠٩٨)، برقم: (٢٧٤٢).

صحارى من أول ما خلق الله الدنيا إلى اليوم ؟ قد تكون أمم عمرتها، ثم أفناها الله -عز وجل- وجعلها كما ترون، مستوية لا ترى فيها شيئاً يدل على قوم سكنوها واستوطنوها.

وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [سورة الكهف: (٧)]، بعض أهل العلم يقول: "أيهم" مرفوع على الابتداء، ولفظه لفظ الاستفهام، أي: نختبرهم أيهم أحسن عملاً وأيهم أسوء عملاً كذلك، فأخبر -تبارك وتعالى- أنه جعل ما على الأرض زينة ليختبر الناس أيهم أحسن عملا، فهل يقبلون عليها ويغفلون عن الله وعن الدار الآخرة؟، هل تستهويهم هذه الزينة ؟ أو أنهم يقبلون على ما هم بصدده؟، الآية الآخرة في سورة تبارك: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [سورة الملك: (٢)]، ولاحظ في الآيتين أن الله -تبارك وتعالى- ذكر أمراً متحداً وهو أنه خلق ذلك من أجل الابتلاء من جهة حسن العمل، هذا المقصود الأكبر، والمطلوب الأعظم الذي من أجله يتنافس المتنافسون، فليست العبرة بكثرة العمل وإنما بإحسان العمل، والله المستعان.

(مسألة)

الإشراك بالله من جملة القول بلا علم، والقول بلا علم يتفاوت ليس على مرتبة واحدة، فلو أن أحداً قال في مسألة من المسائل التي لا علاقة لها بالدين -في مسألة في الرياضيات- بلا علم فهذا يعتبر خطأ، ولكنه لا يكون كالذي قال في مسائل الشرع، ومن قال في مسألة تتعلق بالطهارة مثلاً بلا علم، قال مثلاً: إن الماء لا ينجس ولو تغير، فمثل هذا ليس كالذي نسب لله الصاحبة والولد، وجعل له شريكاً فهذا يتفاوت، والله -عز وجل- قال: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٣]، فذكره مع هذه الأمور، وكثير من أهل العلم يقولون: ذكره مع الإشراك ليدل على شدة شناعته، وهذا إنما هو مأخوذ بنوع من الدلالة يقال لها دلالة الاقتران، وهي من الناحية الأصولية دلالة ضعيفة ليست قوية وليست بحجة، دلالة الاقتران كما في قوله تعالى: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً}[النحل:٨]، كما سبق في الكلام على سورة النحل، فالخيل والبغال والحمير، الأحناف يقولون: إن الله ذكر الخيل مع البغال والحمير -وما ذكرها مع الأنعام- فدل على أنها لا تؤكل، فيقال لهم: هذه دلالة اقتران، وهي ضعيفة.

فهنا بالنسبة لدلالة الاقتران: الذي أظنه -والله تعالى أعلم- أقرب في الكلام فيها هو التوسط فلا يبنى عليها أحكام لضعفها ولكنه يمكن أن يستنبط ويستأنس بها من جهة المعاني، فمثلاً: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ}[الأعراف:٣٣]، الإثم يشمل كل الذنوب، وذكره الله في هذا السياق مع الإشراك، فهل يقال إنه على مرتبته بإطلاق ؟ الجواب: لا، وهكذا ذكر القول عليه بلا علم من جملة هذه وهو من جملة الإثم، ومثل هذا يمكن أن يستأنس به من جهة المعنى، يقال: ذكره الله في سياق هذه الأمور، وإلا فالله -عز وجل- يقول: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ}[الفرقان:٦٨]، ذكر هذه الثلاثة، هل يقال إن من زنى ومن قتل بمنزلة من أشرك ؟ الجواب: لا، لكن من جهة المعاني نستفيد منها ونستأنس بها، نقول: الله ذكر هذين -الزنا والقتل- في هذا السياق مع الإشراك {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ

اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ }[الفرقان:٦٨]، فدل على أن هذه الأمور الثلاثة في غاية الشناعة من جهة المعاني، ولهذا يقال مثلاً: إن الله يقرن بين الصلاة والزكاة دائماً مما يدل على أهمية هذين بين أركان الإسلام مثلاً، أو لمزية، أو يذكر جبريل وميكال، فهذا موكل بما فيه حياة القلوب وهو الوحي، وهذا موكل بما فيه حياة الأبدان، من جهة المعاني، وهكذا حينما يقال: إن الله يقرن بين الصبر والتقوى **{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا}**[آل عمران:١٢٥]، الصبر فيه حبس للنفس عن الجزع والانفلات والترك والتضييع، والتقوى هي الترس الذي إذا تحصن به الإنسان لم يصل إليه الضرر.

(مسألة)

العرب قد تُعبر بالليلة وتقصد يومها معها، وقد تُعبر بالليلة وتقصد بها الانفراد أي الليلة فقط، وقد تُعبر باليوم وتقصد به اليوم والليلة معاً الأربع والعشرين ساعة، ولكن هذا ليس دائماً ولهذا يختلف العلماء في مسائل من هذا القبيل لهذا السبب حينما يقول الله -عز وجل-: **{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}** [الحاقة:٧]، سبع ليالٍ معناها أنها بدأتهم من الصباح، الليلة التي قبلُ لم تأتهم فصارت سبع ليالٍ وثمانية أيام، آخر ليلة مع يومها الذي بعدها ففرق هنا بين الليالي والأيام، لكن تجد هذا الخلاف في الكلام على أقل مدة للاعتكاف -مع أن الحديث لا يثبت فيه أقل مدة الاعتكاف بحال- لما قال عمر -رضي الله عنه-: نذرت أن اعتكف ليلة، هل المقصود ليلة فقط أو المقصود ليلة مع يومها ؟ العرب قد تعبر بهذا عن هذا، وقد تعبر عن غيره، وهذا معروف في إطلاقاتهم، فإذا قال: قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، ولاحِظْ في الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أمر بالصلاة عليه في ليلة الجمعة وفي يوم الجمعة، وفي قراءة الكهف ذكر يوم الجمعة، فتتبُّعُ مثل هذا واستقراؤه قد يحمل الإنسان على أن يرجح أن ذلك إنما يكون في يومه، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٢)

من قوله تعالى"أم حسبت أن أصحب الكهف" الآية ٩إلى قوله تعالى"ويهيئ لكم من أمركم مرفقا" الآية ١٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا* فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا* ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(٩-١٢)].

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: {أَمْ حَسِبْتَ} [سورة الكهف(٩)] يعني: يا محمد {أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف(٩)] أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإنّ خلْق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء أعجبُ من أخبار أصحاب الكهف، كما قال ابن جريج عن مجاهد: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف(٩)] يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا} [سورة الكهف(٩)] يقول: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججي على العباد أعجبُ من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون.

وأما الرقيم، فقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هو وادٍ قريب من أيلة.

وكذا قال عطية العوفي وقتادة.

وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار في الوادي، والرقيم اسم الوادي.

وقال مجاهد: الرقيم كان بنيانهم.

ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم.

وروى عبد الرزاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف(٩)] قال: يزعم كعب أنها القرية.

وقال ابن جريج عن ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف.

وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف.

وقوله: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [سورة الكهف(١٠)] يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم؛ لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم، فَلَجَئُوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا -سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم-: {رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} [سورة الكهف(١٠)] أي: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا، {وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [سورة الكهف(١٠)] أي: وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشداً، أي: اجعل عاقبتنا رشدًا، كما جاء في الحديث: ((وما قضيتَ لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا))[١].

وقوله: {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} [سورة الكهف(١٢)] أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعامًا يأكلونه، كما سيأتي بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} [سورة الكهف(١٢)] أي: المختلفيْن فيهم {أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] قيل: عددًا، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله:

سَبْقَ الجَوَادِ إذَا اسْتَولى على الأمَدِ[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ} [سورة الكهف(٩)] (أم) هذه هي التي يفسرونها بالمنقطعة، وقد مر نظائرها، (أم) المنقطعة هذه مقدرة بـــ(بل) والهمزة، أي بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، وعجباً هذه منصوبة على الحال، أو أنها خبر (كان).

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-:

أي ليس خبرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف.

يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، يعني أن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة بهذا النوم الطويل إلا أن آياتنا كلها عجيبة، وفي هذا الآيات ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف ومن هذا النوم، وذلك أن خلق هذه السماوات والأرض وما يوجد فيهما من المخلوقات، وما وجدت عليه من الدقة العجيبة، وهذا الخلق الهائل، وهذا النظام الدقيق الذي تسير فيه هذه الأفلاك، وما إلى ذلك، كل ذلك من الأمور العظيمة التي هي أعظم من نومٍ وقع لهؤلاء الفتية في هذه المدة الطويلة.

---

١ - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٢٢- ٦٣٩) بلفظ: ((وما قضيتَ لي من قضاء فاجعل عاقبتــه رشــداً)) وصــححه الألباني في الصحيحة (١٥٤٢) وصحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٤٨).

٢ - البيت للنابغة يخاطب النعمان، وقبله:

فمن عصاك فعاقبْه معاقبةً *** تُنهى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ

إلاّ لمثلكَ أو من أنتَ سابقُه *** سبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأمدِ

انظر: المعاني الكبير في أبيات المعاني (٢/ ٨٥٣) والمصون في الأدب (ص: ١١٧) وغيرهما.

بل إن خلقهم -خلق الإنسان- أعجب من هذا، أعجب من هذه النومة التي ضربها الله -عز وجل- عليهم، هذا الإنسان وما فيه من قدرة على عقل الأشياء وفهمها، وما يتصف به من السمع والبصر، وما يختزنه من ألوان المشاعر، وما فيه من الأعضاء والأبعاض التي تعمل بنظام في غاية التعقيد والدقة أعجب من نوم هؤلاء هذه المدة الطويلة، لكن الإنسان لا يدرك كثيراً من هذه الأشياء تارة، وما يتصل بها من وظائف وعمل، أو أنه ربما ألف الشيء حتى صار ذلك لا يحرك شيئاً في كوامنه وفي نفسه، طلوع الشمس من مشرقها، وغروبها من المغرب، وظهور النجوم في الليل، والقمر كذلك، كل هذه أشياء عجيبة، ولكن الإلف هو الذي يجعل الإنسان بهذه المثابة، لو أن أحداً من الناس حُبس منذ أن ولد لم ير شمساً ولا قمراً بمكان، في نفق من الأرض، أو في قبو أو نحو ذلك، وما رأى شيئاً إطلاقاً، ثم بعد ذلك لما أدرك أُخرج فإنه سيبقى مندهشاً مذهولاً حينما يشاهد هذه الشمس وهي تشرق، ثم لم يزل يشاهدها ويرقبها في ارتفاعها إلى أن تغرب، فإذا ظهرت النجوم وأقبل الظلام فإن عجبه لا ينقضي بحال من الأحوال، فينظر إلى هذه السماء وما فيها من العجائب والغرائب، والقمر وما إلى ذلك مما يؤثر فيه غاية التأثير، فإذا رأى الجبال أو رأى البحر فإن ذلك أيضاً يكون محركاً للتفكر والاعتبار، وتعظيم الله -عز وجل- في نفسه، لكن حينما يألف الإنسان الشيء لا يؤثر ذلك فيه.

فالشاهد أن آيات الله كلها عجيبة، وهذا وإن كان من آيات الله إلا أن آياته كلها عجب، وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير هذا القدر من الآية: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ} [سورة الكهف(٩)] وهو الذي فسرها به أيضاً ابن جرير -رحمه الله- والشنقيطي من المعاصرين.

وقوله: "**وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية**" هذا تقريب للمعنى وإلا فإن الكهف يقال للغار الواسع، الغار إذا كان متسعاً فإنه يقال له: كهف، وإذا كان ضيقاً يقال له: غار، هذا الفرق بين الكهف والغار.

فعلى كل حال الكهف معروف، فهو غار متسع، ولكن أين يقع هذا الكهف؟ نحن لم نقف على هذا ولا نعلم، ولا يعنينا ذلك، ولا نستفيد منه، وما اشتغل به كثيرون قديماً وحديثاً من محاولة تحديد هذا المكان، وعمل قياسات لأشعة الشمس لبعض الأماكن، وأن ذلك ينطبق على المحل المعين، كل هذا مما لا فائدة فيه، إنما العبرة في ما تضمنه هذا الخبر من بيان قدرة الله -عز وجل-، وكذلك أيضاً ما يتصل بقضية الإيمان من وجوه متعددة، فالعبرة بهذا، وهو الذي ينبغي أن يكون محل العناية لا مكان الكهف، أو عدد هؤلاء الفتية، أو لون الكلب، واسم الكلب، وما أشبه ذلك.

يقول: "**وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس: هو وادٍ قريب من أيلة، وبعضهم يقول: الرقيم كان بنيانهم، ويقول بعضهم: هو الوادي الذي فيه كهفهم**" الذي يظهر أن الذي قال بهذا ربما يقصد العمران أو القرية التي كانوا فيها، وهذا قول لبعض السلف، وربما يقصد بذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى-: {ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} [سورة الكهف(٢١)] وهذا البنيان ما هو وما طبيعته ؟ الله تعالى أعلم، ولكن من السلف من قال: إن المقصود بالرقيم هو شيء كتب فيه كتابة تتعلق بهم، بعضهم يقول: كُتب فيه أسماؤهم، وبعضهم

يقول: كتب فيه خبرهم وقصتهم، وهذا المعنى رجحه ابن جرير وكذلك الشنقيطي، باعتبار الرجوع إلى أصل المادة.

أما الروايات الإسرائيلية فتقول: إن هذا اسم كلب لهؤلاء، أو أنه اسم القرية، أو اسم الوادي أو نحو ذلك، وكل هذا لا دليل عليه، ولا يعتمد عليه، ولم يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء في ذلك يمكن أن يعول عليه، فيرجع بعد ذلك إلى أصل المعنى اللغوي للرقيم، فالرقم هو الكتابة، ((إلا رقْماً في ثوب))[٣] فهذا أصل الرقم.

يقول: عن ابن عباس في قوله: {الرقيم}: كان يزعم كعب –يعني كعب الأحبار- أنها القرية، ويقصد القرية التي ليس فيها الكهف، وإنما القرية التي خرجوا منها، قرية هؤلاء الفتية، وبعضهم يقول: الجبل الذي فيه الكهف، ومن أهل العلم من يستبعد هذا.

وبعضهم يقول: لوح من حجارة أو رصاص كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف وأسماءهم.

ولاحظوا هذه الأقوال المختلفة، فمن قائل: إنه اسم الكلب، ومن قائل: إنه اسم القرية أو اسم الجبل أو لوح، وكل هذا في غاية الاختلاف والتباين، والسبب أن الاعتماد فيه على الروايات الإسرائيلية، وهذه الروايات الإسرائيلية مليئة بالتحريف والكذب، والله -عز وجل- يقول: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [سورة الإسراء(٣٦)] كيف يكون الرقيم؟ قائل يقول: إنه اسم الكلب، وقائل يقول: إنه اسم الوادي أو أنه لوح كتب فيه كذا وكذا، هذه الأقوال لا يمكن أن تتفق، ولا يمكن أن يجمع بينها ويقال: والله الرقيم يصدق على ذلك كله، وأن الكلب اسمه الرقيم، والوادي اسمه الرقيم والجبل كذلك، هذا ما يمكن، وهذا كثير فيما وجد من المرويات الإسرائيلية، والسبب في ذلك أنها محرفة.

يقول: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١٠-١١)].

{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ} [سورة الكهف(١١)] التعبير بالضرب يشعر أو يدل على شدة اللصوق والعلوق، ووقوع ذلك عليهم، وعلى تمكنه منهم، كما قال الله -عز وجل-: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ} [سورة آل عمران(١١٢)].

{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] قال: أي: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة، ضرب عليهم النوم، وهذا النوم تمكن منهم غاية التمكن، حتى حال بينهم وبين سماع الأصوات {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] ما عادوا يسمعون شيئاً، صاروا مستغرقين في نومهم حتى صاروا لا يسمعون {فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [سورة الكهف(١١)] والسنين هنا منصوبة على الظرفية، وذكر العدد {سِنِينَ عَدَدًا} ليدل على الكثرة، وذلك أن القليل لا يحتاج إلى عد، وإنما الذي يحتاج إلى عد وحساب هو الكثير من الأشياء.

---

٣ - أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من كره القعود على الصورة (٧/ ١٦٨-٨٥) ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة (٣/ ١٦٦٥- ٢١٠٦).

والله -عز وجل- قد بيّن هذه المدة: أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة، وازدادوا تسع سنين، وهذا لا يكون إلا بمعجزة، وأمر خارق للعادة، قال: أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة، والمقصود سددنا آذانهم عن سماع الأصوات بالنوم الغالب الذي يحول بينهم وبين السماع.

يقول: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ} [سورة الكهف(١٢)] أي: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم... إلى آخره، ولهذا قال: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} [سورة الكهف(١٢)] المختلفيْن فيهم {أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)].

{بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ} [سورة الكهف(١٢)] الله -عز وجل- كما هو معلوم- يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة(٤٧)] ويقول عن المنافقين: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [سورة الحشر(١٢)] هذا فيه علم ما لم يكن أنه لا يكون، وأنه لو كان كيف يكون، هم وعدوهم بأنكم إن أخرجتم لنخرجن معكم، وأنكم إن قوتلتم لننصرنكم، فالله -عز وجل- أخبرهم أنهم كذبة في هذا القول، وأنهم إن أخرجوا لا يخرجون معهم، وأنهم إن قوتلوا لا يقاتلون معهم، ولا ينصرونهم، وأنهم إن نصروهم -مع أنهم ما نصروهم- ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون.

فالله عالم بكل الأشياء، ويقول عن الكفار الذين يطلبون الرجعة في الآخرة: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} [سورة الأنعام(٢٨)] فالله لا تخفى عليه خافية، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] ما المقصود بهذا العلم ؟ {بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ} أي: بعثناهم لنعلم علماً يكشف للناس حقيقة هؤلاء، أو المدة التي جلسوها في الكهف {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] هذا علم الظهور والانكشاف وإلا فالله -عز وجل- يعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً، لا يخفى عليه من هذا شيء، ولكن المقصود هنا العلم الذي يحصل به الظهور والانكشاف، هذا المقصود: يعني للناس، وإلا فالله يعلم، كما قال الله -عز وجل-: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ} [سورة التوبة(١٦)] {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [سورة آل عمران(١٤٢)] والمقصود بالعلم علم الوقوع، وليس ذلك يعني أن الله -عز وجل- لا يعلم الصابر من غير الصابر، الله يعلم ذلك، ولكن الشيء والأمر الذي يحصل به الجزاء والحساب هو الوقوع والحصول، فهذا المقصود بمثل هذه الآيات، {حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ} [سورة محمد(٣١)] بمعنى العلم الذي يترتب عليه الجزاء والحساب وهو وقوع ذلك الشيء وحصوله، وتحققه في الواقع، فالله -عز وجل- لا يحاسب الناس بمقتضى العلم بما علمه منهم، وإلا فالله قبل أن يخلقهم عالم بما يكون منهم، ولكنه لا يحاسبهم بذلك، وإنما يحاسبهم بما جرى وحصل ووقع منهم.

فمثل هذه المواضع ينبغي أن يتبين طالب العلم المعنى المراد منها، ولا يلتبس عليه ذلك {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ} [سورة الكهف(١٢)] أي: المختلفيْن فيهم، يبقى النظر في هذين الحزبين من المقصود بهم ؟ بعضهم يقول: أهل الإيمان وأهل الكفر، وبعضهم يقول: هما فريقان من أهل الإيمان اختلفوا فيهم، من أهل زمانهم المعاصرين لهم، وبعضهم يقول: إن هذين الحزبين المشار إليهما في الآية هم من أهل الكهف؛ لأن هؤلاء

اختلفوا، فمنهم من قال: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} [سورة الكهف(١٩)] وبعضهم قال: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} [سورة الكهف(١٩)] فما اتفقوا على مدة متحدة معينة في بقائهم هذا.

وهذا القول لعله أقرب هذه الأقوال، وعلى كل حال بعضهم يقول: بين أصحاب الكهف وبين من فروا منهم {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية، وإذا نظرت تجد أن أحد هذين القولين مستلزم للآخر، إذا عرفوا الغاية عرفوا المدة، والزمن الذي مكثوا فيه في هذا الكهف.

قوله تعالى: {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا} [سورة الكهف(١٢)] (أحصى) هذه تحتمل أن تكون أفعل تفضيل، يعني أكثر إحصاءً، ومن أهل العلم من يمنع في مثل هذا أن يكون للتفضيل، وبعضهم يقول: أحصى فعل ماضٍ {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى} [سورة الكهف(١٢)] المدة التي بقوا فيها في هذا الكهف.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا} [سورة الكهف(١٣-١٦)].

من هاهنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- شبابًا.

وأما المشايخ من قريش فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا.

وقال مجاهد: بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة يعني: الحَلَق، فألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم.

فـ{آمَنُوا بِرَبِّهِمْ} [سورة الكهف(١٣)] أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

{وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [سورة الكهف(١٣)] استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [سورة الكهف(١٣)] كما قال: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [سورة محمد(١٧)] وقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [سورة التوبة(١٢٤)] وقال: {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ} [سورة الفتح(٤)] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم -عليه السلام-، والله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم؛ لمباينتهم لهم.

وقد تقدم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أن قريشًا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء،

وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

سبق أن الرواية لا تصح في هذا.

وقوله: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(١٤) سورة الكهف] يقول تعالى: وصَبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد، والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يومًا في بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: "دقيانوس" وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان.

هذا مأخوذ من الروايات الإسرائيلية أيضاً، فلا يعتمد عليه، وبعضهم يذكر أيضاً أخباراً أخرى مشابهة لهذا.

يقول: إن هؤلاء قاموا فتكلموا بذلك لما اجتمعوا، وعرض بعضهم على بعض ما وقع في نفسه، مما يعاب من دين قومه، فلما اتفقوا في هذا النظر وهذه النتيجة التي توصلوا إليها، وهداهم الله -عز وجل- لها قاموا جميعاً، فقالوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف(١٤)]، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: قاموا فقالوا ذلك بين يدي الملك، وأن الملك لما علم بهم دعاهم قبل ذهابهم إلى الكهف، ثم أمهلهم من أجل أن يرجعوا، فيقال: إنهم قاموا بين يديه، وقالوا: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف(١٤)] لما سألهم عما بلغه عنهم، فأقروا بذلك، وأعلنوه، فأمهلهم مدة من أجل أن يراجعوا أنفسهم في هذا، فلجئوا إلى الكهف، وحصل ما حصل، هكذا قال بعضهم، وكل هذا مما أخذ عن بني إسرائيل.

وتفسير {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} [سورة الكهف(١٤)] بمثل هذا ليس بلازم، فذكْر القيام لا يشترط فيه الوقوف، وإنما قد يكون المقصود به النهوض بأمر من الأمور {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} [سورة الكهف(١٤)] فإن التعبير بالقيام لا يستلزم الوقوف، وكذلك التعبير بالقول لربما يعبر بالقول عن الفعل، وبالفعل عن القول، تقول: قال بيده هكذا، يعني حركها، تقول: قال بيده، فهذا فعل، وكذلك {إذ قاموا} فالقيام فعل {إِذْ قَامُوا فَقَالُوا} [سورة الكهف(١٤)] فليس المقصود القيام على القدمين، وإنما أنهم انبروا لهذا، ونهضوا به، فاعتقادهم لذلك، وإقرارهم بهذه القضية ونحو ذلك هو قيام منهم، تقول: فلان قام بالأمر، وقام بالدعوة، وقام بأمر الله ((القائم على حدود الله))[٤] ليس معناه الواقف حقيقة على قدميه.

---

[٤] - أخرجه البخاري في كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة، والاستهام فيه (٣/ ١٣٩- ٢٤٩٣).

كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري تعليقًا عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف))[٥] وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[٦].

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

الجنسية علة الضم المقصود به: أن التجانس والتشاكل هو علة للاجتماع والتآلف، فإذا رأيت اثنين بينهما تآلف فهذا يعني أنه يوجد أمر مشترك، وحتى إنه يذكر في هذا أن حمامة وغراباً وجدا معاً، فنظر فإذا بالحمامة فيها عرج، كما أن الغراب فيه عرج خلقة، الغراب إذا مشى على رجليه فيه عرج، فقيل: هذا هو الجامع المشترك.

وتجد الناس الذين يلتئمون على بعضهم يوجد بينهم شيء مشترك، إما اشتغال بصنعة، أو تجارة، أو نجوى، أو أنه يوجد بينهم قرابة، أو أنهم من أهل بلد معين؛ ولهذا سبق في الاقتضاء -اقتضاء الصراط المستقيم- كلام شيخ الإسلام: أن الواحد إذا خرج من بلده إلى مكان غربة وسافر، فوجد أحداً من أهل بلده أنه يكون بينهم من المؤاخاة وقوة الصلة والمصافاة ما لا يقادر قدره، بينما هو في بلده حينما يراه ويرى أمثاله لربما لا يسلم عليه، فإذا رآه في مكان الغربة حصل له ميل إليه ومؤاخاة، فالجنسية علة الضم والتجانس.

---

٥ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ١٣٣-٣٣٣٦).

٦ - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ٢٠٣١- ١٥٩) (٢٦٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

من قوله تعالى"وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله" الآية ١٦ إلى قوله تعالى"ولملئت منهم رعبا" الآية ١٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة قصة أصحاب الكهف:

والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفًا منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يُشرَك به شيء هو الله الذي خلق كل شيء، السموات والأرض وما بينهما.

وقال الآخر: وأنا والله وقع لي كذلك، وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يدًا واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبدًا يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله -عز وجل-؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا} [سورة الكهف: (١٤)]، ولن: لنفي التأبيد، أي: لا يقع منا هذا أبدًا؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا؛ ولهذا قال عنهم: {لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [سورة الكهف: (١٤)]، أي: باطلاً وكذبًا وبهتانًا.

{هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ} [سورة الكهف: (١٥)] أي: هَلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحًا صحيحًا؟! {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [سورة الكهف: (١٥)].

يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتَهَدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا في أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه، والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث: ((يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شغف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن))[1] ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك في قوله: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [سورة الكهف: (١٦)]، أي: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته}

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب الفتن، باب ما يرخص فيه من البداوة في الفتنة (٤ / ١٦٦)، برقم: (٤٢٦٩)، وصححه الألباني.

[سورة الكهف: (١٦)] أي: **يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم** {وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم} [سورة الكهف: (١٦)] **الذي أنتم فيه،** {مِرفَقًا} أي: **أمرًا ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هُرابًا إلى الكهف، فأَوَوْا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى الله عليه خبرهم، كما فعل بنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه الصديق -رضي الله تعالى عنه- حين لجأا إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حين رأى جَزع الصديق في قوله: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال:** ((يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))[٢]، **وقد قال تعالى:** {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [سورة التوبة: (٤٠)]، **فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالسياق الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في سبب وصفة مخرج هؤلاء الفتية إنما هو متلقى عن الأخبار الإسرائيلية، وكما هو معلوم أن مثل هذه الأخبار لا يعتمد عليها، وإنما تذكر للاستئناس، ولا يفسر بها القرآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج))[٣]، مع أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يُعرض عن كثير من هذه الأخبار الإسرائيلية.

وقول العلامة ابن كثير –رحمه الله–: "**وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس، أن يفر العبد منهم خوفًا على دينه، كما جاء في الحديث:** ((يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنمًا يتبع بها شغف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن)) **ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع**".

هذا إجمال يحتاج إلى شيء من التفصيل أكثر من هذا، فإذا وقعت الفتن فالناس إزاء ذلك على أنواع، منهم من لا يصلح له العزلة وينبغي أن يخالط الناس، وهو من يكون سبباً لإطفاء الفتنة وتعليم الناس وبيان الحق لهم والمخرج من هذه الفتنة، دون الدخول معهم فيها، فهذا قد يتعين عليه الخلطة.

والصنف الثاني: هو من إذا لم يعتزل فإنه يدخل في الفتنة، إما لأنه لا يميز بين الحق والباطل أصلاً، أو لأنه يميز من الناحية النظرية، عنده نوع تمييز ولكنه من الناحية العملية لا ينضبط، فيخوض مع الخائضين في الفتنة، فمثل هذا قد يتعين أو يجب عليه أن يعتزل.

والقسم الثالث: هو من لا يدخل في الفتنة ولكنه لا ينفع الناس، إما لأنه ليس عنده من العلم والعمل ما يصلح معه أن يكون محلاً للاقتداء، فإذا قال لم يُسمع، ولا يقتدي به أحد، أو أن الفتنة صارت غالبة بحيث إن الناس لا يعبئون به، ولا ينتفعون بكلامه ولا فعاله، فمثل هذا قد يكون السلامة له في العزلة، فالإنسان لا يأمن الفتن

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة براءة التوبة (٤ / ١٧١٢)، برقم: (٤٣٨٦)، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (١٨٥٤/٤)، برقم: (٢٣٨١).

[٣] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (١٢٧٥/٣)، برقم: (٣٢٧٤).

أن يقع فيها، وكما جاء في الحديث ((**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه**))[٤].

فينبغي للمؤمن دائماً أن يسأل ربه الثبات على الحق والتسديد والهداية، وهو يقول دائماً في كل ركعة: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة: (٦)]، فالفتن خطافة، وهي شديدة العلوق بالقلب، وما حصل في زمان الصحابة -رضي الله عنهم- وما بعدهم ومن بعدهم من أهل القرون المفضلة لعبرة لكل من يعتبر، فتجد الرجل لربما يكون من أئمة الدين، وتجد زوجته وخادمه وولده كل واحد منهم على مذهب، هذا من الخوارج، وهذا من المرجئة، وهذا من القدرية، وهذا كان موجوداً في ذلك الزمن فما بالك بزماننا!.

قوله –تبارك وتعالى-: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} [سورة الكهف: (١٦)] الاستثناء يحتمل أن يكون منقطعاً بمعنى لكن، ويحتمل أن يكون متصلاً، والاستثناء المتصل هو ما كان المستثنى فيه من جنس المستثنى منه، بخلاف المنقطع، فإذا كان هؤلاء القوم يعبدون الله -عز وجل- ويعبدون آلهة أخرى، فيكون الاستثناء متصلاً، {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} من هذه المعبودات، وإذا كان أولئك لا يعبدون الله أصلاً وإنما يعبدون آلهة أخرى فيكون الاستثناء منقطعاً، فتكون "ما" هذه دالة على العموم.

قوله –تبارك وتعالى-: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته} [سورة الكهف: (١٦)]، أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، وغير ذلك مما يحصل لهم من ألطاف الله -عز وجل-، {وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم} [سورة الكهف: (١٦)] الذي أنتم فيه، والأمر هنا بمعنى الشأن؛ لأن الأمر يأتي بمعنى طلب الفعل.

{مِرفَقًا}، أي: أمرًا ترتفقون به، يعني وتنتفعون، يهيئ لكم حالاً يحصل لكم بها الانتفاع والصلاح.

ثم ذكر واقعة الغار في هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وكيف أن الله -تبارك وتعالى- عمّى ذلك على المشركين.

والفتية خرجوا من قومهم إلى هذا الغار، وهذا الغار في محل ليس ببعيد عن تلك البلدة التي خرجوا منها، وأياً كانت هذه البلدة، وقد ورد اسمها في بعض هذه الروايات الإسرائيلية، يقال لها: طرسوس، وبلاد الشام كما هو معلوم ليست بلاداً كبيرة واسعة الأرجاء، بحيث إنه يمكن أن يعتزل الإنسان عن الناس في مكان لربما لا يصلون إليه إلا بغاية الصعوبة، فبلاد الشام مليئة بالبشر والقرى، ليست صحراء، فمكان الغار قريب جدا، بدليل أنهم بعثوا واحداً منهم يأتيهم بالطعام من القرية، ومع ذلك بقوا هذه المدة، ثلاثمائة وتسع سنوات، ولم يصل أحد إلى هذا الكهف، فعادةً الناس يعرفون البلد حجراً حجراً، ويعرفون الكهوف والغيران، ويعرفون مواقع الماء في الجبال، وهذا يوجد حتى في البيئات الصحراوية كما عندنا، فكيف ببلد كالشام، فهذا مستغرب، فهو آية من آيات الله -عز وجل-، حيث في هذه المدة الطويلة لم يأتهم أحد، فلو تأملت في حال جبل النور

---

[٤] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وأنه يأرز بين المسجدين (١/١٢٨)، برقم: (١٤٤).

والغار وموضع الغار، فكيف توصلوا إليه برأس هذا الجبل الذي تعرفون حاله وصفته، كيف وصل الناس إلى ذلك المكان وعرفوا أنه يوجد فيه غار ؟ الناس ما يتركون حجراً إلا ويفتشون عنه.

فهذه آية من آيات الله، فإذا أراد الله شيئاً كان، وقد أتى الكفار إلى فم الغار الذي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه ولم يستطيعوا أن يروه.

وموسى -صلى الله عليه وسلم- ومن معه لما وقع لهم التيه بقوا في صحراء ليست واسعة الأرجاء إطلاقاً، بقوا فيها نحواً من أربعين سنة -بحسب الوقف والوصل في الآية- حتى قيل إنهم كانوا يمشون سائر النهار، فإذا نزلوا في الليل في مكان، فإذا أصبحوا إذا هم بالمكان الأول، وهذه الصحراء التي تاهوا فيها كان معهم أدلاء بلا شك، وحتى لو لم يوجد معهم أحد، فإن الناس إذا توجهوا من أي جهة سيخرجون من هذه الصحراء خلال أيام، من أي اتجاه بلا استثناء، ومع ذلك يبقون هذه المدة الطويلة، ومعهم نبي من أجلّ أنبياء الله -عز وجل- ويظللون بالغمام وينزل عليهم المن والسلوى، فإذا أراد الله شيئاً لا بد أن يكون، أذكر هذا من أجل أن من الناس من يقول: أين الدجال الذي في الجزيرة الذي ورد في قصة تميم الداري؟ وأين يأجوج ومأجوج إذا ما كانوا هم الصينيين؟ لماذا لا يطلع عليهم الناس، أين الأقمار الصناعية ؟ نقول: إذا أراد الله شيئاً كان، لا يعجزه شيء.

قوله: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا} [سورة الكهف: (١٧)] **وهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه {ذَاتَ الْيَمِينِ} أي: يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: {تَزَاوَرُ} أي: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: {وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} أي: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه، ولله الحمد.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ}، التزاور هو الميل، ومن فسره بأنه الانقباض تقول: فلان فيه ازورار عن فلان، أي انقباض وإعراض، بمعنى أن الشمس تعرض عنه، فهو راجع إلى معنى الميل، وقد كان باب الكهف من جهة الشمال، فالشمس عن يمينهم وقت الطلوع، وعن يسارهم وقت الغروب، فالشمس لا تأتيهم من ناحية الجنوب بطبيعة الحال، ولا تأتيهم من ناحية الشرق، ولا الغرب، باعتبار أن مدخل الكهف من ناحية الشمال فلو كان مدخل الكهف من ناحية الشرق فهي لن تأتيهم إذا كانت بعد الزوال، ولو كان من جهة الغرب فهي لن تدخل عليهم في أول النهار، لكن هذه في أوله وآخره، فدل على أن باب الكهف إلى جهة الشمال.

والمقصود أن ينظر الإنسان في قدرة الله -عز وجل-، وما هيأ لهم من أمرهم من ألوان الألطاف وما نشر لهم من رحمته -تبارك وتعالى- فجعل الشمس تصيب الكهف في هذين الوقتين، أضف إلى ذلك ما قصه الله -عز وجل- من تقليبهم من أجل أن تبقى أبدانهم على حال من الاعتدال، فمعلوم أن الإنسان إذا بقي على ناحية واحدة فإن جسمه يتضرر.

فالذي يصاب بأمراض مزمنة ولا يستطيع أن يتحرك ويضطر للبقاء على ظهره يحتاج أن يقلّب؛ لأن هذا الإنسان يكون عرضة لأدنى الأشياء، فالمقصود أن تقليب هؤلاء الفتية لتبقى معه أبدانهم محفوظة في حال من الاعتدال، وكل هذا مما نشره الله -عز وجل- لهم من رحمته.

قال: {وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ}، القرض بمعنى القطع، ولهذا يقال: مقراض أو مقرض للآلة التي تقطع، والمعنى {تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ} أي: تعدل عنهم وتتركهم.

قوله: {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ} مكان متسع لا تصيبهم الشمس، والله -عز وجل- يصرف عنهم الشمس فلا تقع عليهم فتضر أجسامهم مع أنهم في مكان متسع من الكهف، وليس المقصود أن حواجز الكهف وجوانب الكهف الطبيعية هي التي منعت الشمس، وإنما امتناع دخولها ووقوعها عليهم آية من آيات الله -عز وجل-، فالله صرف ذلك عنهم مع أنهم في مكان متسع، ليس المقصود أنهم في الناحية الشمالية، وأن جوانب الكهف الأيمن والأيسر والجنوبي تمنع من دخول الشمس وإصابتها لأجسامهم، ولكن الله صرف عنهم الشمس بأمر غير معتاد، وهذا المعنى هو الذي رجحه جماعة من أهل العلم من المتقدمين، ومن المتأخرين، منهم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، واختاره الإمام الشوكاني، والزجَّاج، وهذا القول له وجه قوي من النظر؛ لقوله -عز وجل-: {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ}.

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله -صلى الله عليه وسلم- إليه، فقد قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تركت شيئًا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به))[٥]، فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ} قال مالك عن زيد بن أسلم: تميل {ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} أي: في متسع منه داخلا بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما.

{ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: {ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} ثم قال: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} الآية أي: هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [سورة الكهف: (١٨)].

---

[٥] - مصنف عبد الرزاق (١١ / ١٢٥)، برقم: (٢٠١٠٠).

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البِلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينًا ويفتح عينًا، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد.

قوله: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ} فسره -رحمه الله- بأن أعينهم مفتوحة، وبعضهم يقول: إن ذلك لكثرة تقلبهم، يتقلبون كثيراً، فالتقليب حاصل، لكن من نظر إلى النائم وهو يتقلب، هل الناظر إليه يظن أنه مستيقظ بهذا التقلب؟ هذا ليس بلازم، فمن عادة النائم أنه يتقلب، وإنما الذي يُظن أنه مستيقظ هو من كانت أعينه مفتوحة؛ لأن هذا خلاف العادة، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ}، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض.

وقوله: {وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ} قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير: الوصيد: الفِناء.

وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب، والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} [سورة الهمزة: (٨)] أي: مطبقة مغلقة. ويقال: "وَصِيد" و "أصيد".

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

وصيد وأصيد، هما لغتان للعرب يعبرون بهما، فبعضهم يعبر بهذا، وبعضهم يعبر بهذا، بعضهم يقول: الأصيد وبعضهم يقول: الوصيد، وما جاء في عبارات أهل العلم من قول بعضهم بعتبة الكهف، أو البعض: بأنه بباب الكهف، لا يقصد أن الكهف له عتبة، أو أن الكهف له باب، وإنما يقصد في موضع العتبة عند المدخل، أو في موضع الباب وإن لم يكن للكهف باب، ولهذا بعضهم يعترض بعض الاعتراضات التي لا محل لها، فيقول: الكهف أصلاً ليس له عتبة، والكهف أصلاً ليس له باب، والمقصود هو موضع الباب وموضع العتبة كما جرت العادة أن الكلب يجلس في ذلك المحل للحراسة بالوصيد، فالوصيد هو مدخل الكهف.

قال ابن جريج يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر كما ورد به الحديث الحسن وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه، وقيل: كان كلب طباخ الملك، وقد كان وافقهم على الدين فصحبه كلبه، فالله أعلم.

على كل حال هذا لا فائدة منه، والمقصود أن معهم كلباً، وبعضهم يقول: مروا براعٍ معه كلب فتبعهم، وبعضهم تكلم على لون الكلب واسمه، واختلفوا في اسمه، فنقول هذا لا فائدة فيه، وهو اشتغال عن المقصودِ وموضعِ العبرة بمثل هذه الأمور التي لا أثر لها، لكن اللفتة التي ذكرها الحافظ ابن كثير –رحمه الله– لفتة جيدة، فالكلب صحبهم فوقع له مثل هذه النومة الطويلة، فإذا كان الكلب وهو بتلك المنزلة السافلة المنحطة قد

استفاد من صحبة الأخيار فما بالك بغيره؟ فإن الإنسان بصحبته للأخيار ينال من الخير ما لا يخطر له على بال.

وقوله تعالى: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} [سورة الكهف: (١٨)]، أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء -تبارك وتعالى- فيهم، لما له في ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

قوله: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} قول الحافظ ابن كثير: "**أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس**".

الله -تبارك وتعالى- عمّى عنهم أبصار الناس فلم يصلوا إليهم أصلاً، وإلا فلو رآهم الناس، ورآهم واحد وذهب وأخبر الناس لتجمعوا ينظرون إليهم، فليست القضية -والله أعلم- من أجل أن لا تمسهم يد لامس، فالناس ما رأوهم حتى نقول: تركوهم فزعاً، ولذلك لما وقفوا على أمرهم فيما بعد اجتمعوا وقالوا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)].

فقوله: {لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}، ربما يكون لما كانوا عليه من هذه الآية التي ذكرها الله -عز وجل- فعيونهم مفتوحة وهم في حال من الاستغراق والنوم، أو لما ألقى عليهم من المهابة، أو غير ذلك مما يعلمه الله -عز وجل.

ومن من أهل العلم من قال: إن ذلك بسبب تغير أحوالهم من طول الشعر والأظفار، لما جلسوا هذه المدة ثلاثمائة وتسع سنوات وكيف تكون حال الإنسان إذا ترك شعره فيها، ولم يقص أظفاره، كيف تكون لحيته وكيف يكون شاربه، لكن هل كانت أجسادهم تنمو في هذه المدة أصلاً ؟

فلو أن هؤلاء بعدما استيقظوا بعد ثلاثمائة وتسع سنوات، وقاموا ولحاهم بيض وهم في هيئة من عاش هذه المدة فعلاً، فلماذا لم يفزعوا هم من أنفسهم حينما استيقظوا؟ فظاهر الآية والسياق أن ذلك لم يحصل منهم، بل لم يعرفوا المدة التي بقوها حتى إن بعضهم قال: {لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}.

فلو رأى الواحد فيهم أن شواربه أمتار، وأن لحيته أمتار، وأن شعره لربما يبلغ عشرات الأمتار، لاستغرب وخاف، فالذي يظهر أنهم قاموا بنفس الهيئة، وظنوا أن المدينة هي المدينة، وأن العملة هي العملة، وأن الناس هم الناس ولا زالوا، {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف: (٢٠)]، فلا يعقل أن يكون حصل لهم التغير -مما يحصل للإنسان عادة حينا ينمو في هذه المدة الطويلة- ولم يحصل لهم استغراب من هذا، ولم يدركوا أنهم جلسوا مدة طويلة إطلاقاً.

ولذلك ذهبوا إلى المدينة باعتبار أنها كما تركوها، ولو كانوا في هيئة أخرى لكانوا بحاجة إلى إصلاح الحال قبل الذهاب إلى الناس ومقابلة الناس، بل قد يفزعون هم من أنفسهم.

والله -عز وجل- على كل شيء قدير، فقد تحمل الأم خمس سنوات وأكثر، ويخرج الجنين مثل الجنين الذي تحمل به أمه تسعة أشهر.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

من قوله تعالى"وكذلك بعثنهم ليتساءلوا بينهم" الآية ١٩ إلى قوله تعالى"ولا تستفت فيهم منهم أحدا" الآية ٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{وكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف: (١٩-٢٠)] **يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: {كَمْ لَبِثْتُمْ}، أي: كم رقدتم ؟ {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: {أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}، أي: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردّد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ} أي: فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} أي: مدينتكم التي خرجتم منها والألف واللام للعهد، {فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا} أي: أطيب طعاماً، كقوله: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا}[النور:٢١] وقوله: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}[الأعلى:١٤] ومنه الزكاة التي تُطيب المال وتطهره.**

وقوله: {وَلْيَتَلَطَّفْ} أي: في خروجه وذهابه وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتخَفَّ كل ما يقدر عليه، {وَلا يُشْعِرَنَّ} أي: ولا يعلمن، {بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} أي: إن علموا بمكانكم، {يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ} يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: {وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا}.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (١٩)] كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيه إجمال، أي: أطيب طعاماً.

وابن جرير -رحمه الله- يرى أن المعنى أي: ينظر أيَّ أهل المدينة أطيب طعاماً وأحل من جهة المكاسب وأطهر، وهذا القول يختلف عن قول من قال: {أَزْكَى طَعَامًا}، أي: ينظر في الأطيب من الطعام من حيث هو.

ولكن لا يخفى أن بين القولين ملازمة، فإذا كانت مكاسب هذا الطعام محرمة فإنه يكون حراماً بهذا الاعتبار، يقال: {أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا} أي: من جهة مكسبه، ومن حيث ذاته حيث هو، فيأتي بالطعام الطيب الذي لا شبهة فيه.

وعلى كل حال بهذا الاعتبار يمكن أن يفهم المعنى، والله أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ} يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتموهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة**".

{يَرْجُمُوكُمْ} الرجم يحتمل أن يكون المقصود به الرجم بالحجارة كما قاله بعض أهل التفسير، ومنهم من يقول: أي: يرجموكم بالشتم بالقول، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وسبق الكلام على الاستعاذة وأن المراد بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يحتمل أن يكون المرجوم فعيلاً بمعنى مفعول أي مرجوم، والشيطان ليس المراد أنه مرجوم بالحجارة، وإنما يرجم بالسب واللعن والشتم وما إلى ذلك، ويحتمل أن يكون بمعنى راجم، أي: أنه يرجم الناس بالوساوس والخواطر والأفكار السيئة.

وهكذا في قوله تعالى: {لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [سورة مريم: (٤٦)]، يحتمل أن يكون المعنى: {لَأَرْجُمَنَّكَ} يعني بالقول، ويحتمل أيضاً أن يكون بالحجارة.

قوله: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)].

يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي: أطلعنا عليهم الناس، {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا} ذكر غير واحد من السلف: أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه...

في قوله: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [سورة الكهف: (٢١)]، {لِيَعْلَمُوا} يحتمل أن يكون ذلك عائداً إلى أصحاب الكهف ليعلموا قدرة الله -عز وجل- من حيث اللفظ، ولكنه في غاية البعد؛ لأن ذلك ربط بقوله: {أَعْثَرْنَا}، ويأباه السياق تماماً، فلو أنه قال: كذلك بعثناهم ليعلموا أن وعد الله حق فهذا واضح.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشي في غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقسوس.

وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، فجعل لا يرى شيئًا من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه ويقول: لعل بي جنوناً أو مساً أو أنا حالم، ويقول: والله ما بي شيء من ذلك، وإن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة، ثم قال: إن تعجيل الخروج من

هاهنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً، فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة ؟ لعله وجدها من كنز، ومن أنت ؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه البلدة وعهدي بها عشية أمس وفيها دقيانوس، فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير في حاله، وما هو فيه، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف -ملك البلد وأهلها-، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم: دعوني حتى أتقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي، فدخل فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل واسمه يندوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله -عز وجل-، فالله أعلم.

هذا كله ملتقى عن بني إسرائيل.

وقوله: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} أي: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان، {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} أي: في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم.

ويحتمل: {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ} يحتمل أن المراد بذلك أصحاب الكهف، أي: في أصحاب الكهف، والله أعلم.

كثير من المفسرين يقولون: إن المراد بذلك البعث والقيامة، فأراد الله أن يبين لهم وأن يقررهم {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ}، وإذا كان المعنى كذلك فلا يصح معه أن يقال بأن الملك الذي أدركهم كان مسلما، وأن الأحوال قد تبدلت بعد أولئك الكفار.

ويحتمل أن يكون المعنى يتنازعون في شأن القيامة في إثباتها ونفيها، ويحتمل: يتنازعون بينهم أمرهم، أي: أصحاب الكهف حينما عثروا عليهم.

قوله: **{فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم، {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا}.**

قوله: {رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} يحتمل أن يكون المعنى متصلاً لفظاً ومعنى، يعني: أن ذلك من قول هؤلاء القائلين ومن تمامه.

ويحتمل أن يكون ذلك من الموصول لفظاً المفصول معنى، ويكون ذلك من قول الله -عز وجل-: {فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا}، قال الله: {رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ}، ولكن الأول أقرب، والأصل في الكلام الاتصال، وأنه من مقول متكلم واحد.

قوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)] **الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟**

الراجح أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، يعني: الملك ومن معه، قالوا: لأن هؤلاء هم أهل الغلبة، وبعضهم يقول: الذين قالوا ذلك هم أهل الإيمان، وهذا يخالف قول من قال بأن الملك كان مسلماً، ولا دليل على هذا، ويزعم هؤلاء الذين قالوا بأن ذلك من قول أهل الإيمان أنهم ذكروا المسجد: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} والواقع أن مثل هذا لا يصدر من أهل الإيمان بل يكون من القبوريين المشركين والوثنيين الذين يعبدون الأضرحة والمشاهد وما أشبه هذا؛ ولهذا إذا قلنا بأن ذلك لا يكون من أهل الإيمان فإن هذا الفعل يكون من أهل الإشراك ولا عبرة بقولهم ولا فعلهم، وهذا هو الأقرب، والدليل على ذلك: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))[1]، وقد يقول قائل: لعل هذا كان جائزاً في زمانهم وفي عهدهم، ولكن هذا الفهم أو الاحتمال غير صحيح، بدليل اللعن كيف يكون جائزاً في زمانهم ويلحقهم اللعن بسببه؟ لا يمكن، فعن عائشة -رضي الله عنها-: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله)[2].

ففعل هؤلاء غير محمود، ثم إن الشريعة جاءت بتحريم الشرك وذرائع الشرك، ولا شك أن بناء المساجد على القبور من أعظم ذرائع الشرك، وعليه يكون المعنى في قوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} أنه من كلام أهل الكلمة والنفوذ وهم غير مسلمين، ولا يفهم من هذا أن الملك كان مسلما، كما ذكرت الروايات الإسرائيلية .

الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، يحذر ما فعلوا))[3]، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يُخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها.

---

١ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (١ / ٤٤٦)، برقم: (١٢٦٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد (١ / ٣٧٦)، برقم: (٥٣٠)

٢ - رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة (١٦٧/١)، برقم: (٤٢٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد (٣٧٥/١)، برقم: (٥٢٨)، واللفظ للبخاري.

٣ - جاء الحديث عند البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣ / ١٢٧٣)، برقم: (٣٢٦٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد (٣٧٧/١)، برقم: (٥٣١)، بلفظ: (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). يحذر ما صنعوا.

الذي وُجد ليس قبر دانيال، وإنما الذي وجد هو دانيال، كان في بيت المال عند الفرس، رجل مسجى لم يتغير فيه شيء، وكانوا إذا أجدبوا خرجوا يستسقون به، يقال: إن هذا هو دانيال وعنده رقعة، يعني: عنده كتاب أو ورق أو جلد مكتوب فيه، ويقال: إنه من أنبياء بني إسرائيل ممن أخذهم بُخْتُنَصَّر في خراب بيت المقدس، أخذ كثيراً من أشرافهم أولادَ الأنبياء وخلقاً لا يحصيهم إلا الله، وقتل من قتل وأخذ هؤلاء معه إلى العراق، يقال: إن من جملة من أخذهم دانيال، ويقال: إنه حبسه في بئر، والله تعالى أعلم.

وقد أمر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- أن يُحفر له بالليل قبور متعددة ويوضع في واحد منها ويعمّى خبره، وهذا الذي قد حصل.

وهناك قاعدة ذكرها أهل العلم، وهي: أن ما يذكره الله -عز وجل- في القرآن من حكاية قول القائلين، فإما أن يعقبه بما يشعر برده أو يسكت عنه، فإذا عقب بما يشعر برده فهذا واضح في بطلانه، إما أن يذكر ذلك قبله أو معه أو بعده، وإما أن يسكت عنه، فدل ذلك على صحته، غالباً، فمثلا قوله –تبارك وتعالى-: {وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [سورة البقرة:(١١٦)]، {وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة البقرة: (١١١)]، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [سورة البقرة: (١١٣)]، وتارة يذكر ما هو حق وباطل: {وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا} [سورة الأعراف: (٢٨)]، فيُبطل أحد الأمرين ويسكت عن الآخر مما يدل على صحته: {قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة الأعراف: (٢٨)]، وسكت عن الثانية: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا} فدل على صحتها، وسيأتي في قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ} [سورة الكهف: (٢٢)]. قوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} دل على بطلان هذه الأقوال.

ثم قال: {وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ} [سورة الكهف: (٢٢)]، ولم يقل: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ}، فاستنبط جماعة من أهل العلم منهم شيخ الإسلام، ومنهم الحافظ ابن كثير أن ذلك هو الصحيح؛ ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وبعض التابعين إنهم من القليل الذين علموه.

فقوله: {قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} [سورة الكهف: (٢١)]، لم يعقب الله –تبارك وتعالى– على بطلان هذا القول، وقد احتج القبوريون على صحة فعلهم في عبادة القبور بهذه الآية، ويرد عليهم من وجهين:

الأول: أن القواعد أغلبية، فنقول في القاعدة: هي أغلبية، يعني: إن سكت عنه لم يذكر معه أو قبله أو بعده ما يدل على بطلانه، فهذا يدل على صحته غالباً وليس دائماً، فالقواعد لها مستثنيات فيكون هذا واحداً من الصور الخارجة عن القاعدة.

الثاني: لو فرض أن عبادة القبور كان جائزاً في شريعتهم، فإنه لا يجوز في شريعة من الشرائع أن يعبد غير الله -عز وجل-، وهذا قد حرم بهذه الشريعة، وهذه الشريعة أكمل الشرائع، وفيها من سد الذرائع الموصلة إلى الشرك ما ليس في غيرها، فحرمه الله -عز وجل- علينا، وشرع من قبلنا إذا وُجد في شرعنا ما يدل

على تحريمه ومنعه فلا شك قطعاً بالاتفاق أنه ليس بشرع لنا، هذا أمر متفق عليه، وإن اختلف في أصل القاعدة. فلا يترك المنصوص الصريح الواضح لأمر فيه احتمال، لا يجزم به.

قوله: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٢٢)]، **يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَّف القولين الأولين بقوله: {رَجْمًا بِالْغَيْبِ} أي: قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر.**

وقوله: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقَّفنا.

وقوله: {مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ} أي: من الناس، قال قتادة: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنا من القليل الذي استثنى الله -عز وجل-، كانوا سبعة.

وكذا روى ابن جريج، عن عطاء الخرساني عنه أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله -عز وجل-، ويقول: عدتهم سبعة.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ} قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

قال تعالى: {فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا} أي: سهلاً هيناً؛ فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، {وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي: من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.

قوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا} [سورة الكهف: (٢٢)]، أي: سهلاً هيناً، المقصود أن الإنسان لا يتعمق في هذا ولا يكثر من الجدل والتمحل فيه، وإنما يذكر ما عنده أو ما عرفه في هذا مما أوحى الله -عز وجل- إلى نبيه -صلى الله عليه وسلم- دون الدخول معهم في مراء في هذه القضية التي لا علم لهم بها، ولا يترتب عليها كبير فائدة، وهذا أدبٌ أدَّبَ الله -عز وجل- به نبيه -صلى الله عليه وسلم- وهو القدوة والمقدم بحيث تكون الأمة بهذه الصفة، وأن يترك الواحد المراء والجدل وإن كان محقا.

فالإنسان الذي يريد أن يقرر الباطل أو يدحض الحق أو يريد الجدال لمجرد الجدال أو لشهوة في نفسه وهوى فمثل هذا لا يجادل في الأصل.

وكذلك إذا كانت القضية التي يجادل فيها مما لا يترتب عليه عمل ولا فائدة؛ ولهذا كره السلف البحث والتنقير والجدل فيما يسمى بالأغاليط وصعاب المسائل وتتبع ذلك والاشتغال به، وهكذا الاشتغال بكل ما لا يترتب

عليه عمل أو لا يكاد يقع أصلاً، وهذا الذي وقع فيه المتكلمون بطوائفهم المختلفة فاشتغلوا بالقيل والقال والجدال العقيم الذي لا ينبني عليه عمل ولا يقرب إلى الله -عز وجل- وإنما صار الأمر كما قال بعضهم:

نهاية إقدام العقول عقال ***وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا***وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا***سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

فمثل هذا ما الفائدة منه، وإنما ينتج منه الحيرة والاضطراب والتنقل من دين إلى دين واعتقاد إلى اعتقاد، كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل، والمنقول عن السلف كثير في ذم هذا الصنيع والتحذير منه، وأن ذلك لا يجدي على أهله نفعاً؛ ولهذا كان بعض الذين وقعوا في هذا الأمر يقول: أضع الملحفة على وجهي وأصابح الصبح وأقارن بين أقوال هؤلاء وهؤلاء ولا يتبين لي من ذلك شيء، والآخر يقول: أموت وما عرفت إلا أن الممكن يفتقر إلى الموجد والافتقار أمر سلبي، أموت وما عرفت شيئاً، والجويني رجل قد خبر هذه الأمور وعرفها يقول عند موته: أموت على عقيدة عجائز نيسابور.

فالاشتغال بالجدل في أمر لا فائدة فيه ولا طائل تحته -سواء كان ذلك في أمور الاعتقاد أو في الأمور العملية- هذا أمر لا يجدي، فيعرض الإنسان عنه ولا يقف عنده، ويمكن أن يذكر ما عنده أو ما عرفه دون التعمق وقطع الزمان بمثل هذه الأمور، والله تعالى أعلم.

{وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٢٢)] لأنهم لا يعرفون، لا علم عندهم بذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد أوحى الله إليه، فهو مؤيد بالوحي، كيف يستفتي من هو دونه والأصل أن يستفتي الإنسان من هو أعلم منه؟!.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٥)

من قوله تعالى"وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا" الآية ٢٣ إلى قوله تعالى:"ولا يشرك في حكمه أحدا" الآية ٢٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا } [سورة الكهف: (٢٣-٢٤)].

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله -عز وجل-، علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((قال سليمان بن داود -عليهما السلام-: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة)) -وفي رواية: ((تسعين امرأة)) وفي رواية: مائة امرأة- تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له -وفي رواية: قال له الملك- قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لم يحنث، وكان دركاً لحاجته)) وفي رواية: ((ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون))[١].

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: ((غداً أجيبكم))[٢] فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة فأغنى عن إعادته.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد (٤/ ٢٢ -٢٨١٩) (٦٦٣٩) وفي كتاب الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم- (٨/ ١٣٠)، (٦٦٣٩)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب الاستثناء (٣/ ١٢٧٦ - ١٦٥٤).

٢ - انظر: فتح الباري ٦٠٣/١١، وذكره ابن كثير في تفسيره ١٣٢/٥-١٣٣ قال "وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، قال: حدثني شيخ من أهل مصر، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكر قصة اجتماع اليهود بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وسؤالهم عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح. وتأخر الوحي عنه

وقوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف(٢٤)] قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري.

وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: في الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثني ولو إلى سنة، وكان يقول: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف(٢٤)] في ذلك.

قيل للأعمش: سمعته عن مجاهد؟ قال: حدثني به ليث بن أبي سليم، يرى ذهب كسائي هذا.

ومعنى قول ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه يستثني ولو بعد سنة، أي: إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله، وذكر: ولو بعد سنة، فالسُّنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسُنَّة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير -رحمه الله تعالى-، ونص على ذلك، لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة.

وهذا الذي قاله ابن جرير -رحمه الله- هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٤)] أي: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم.

وروى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٣-٢٤)] أن تقول: إن شاء الله.

وقوله: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [سورة الكهف (٢٤)] أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا} [سورة الكهف: (٢٣)] ما أشار إليه المؤلف -رحمه الله- مما يتعلق بسبب النزول، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لهم بعد سؤالاتهم: ((غداً أجيبكم)) فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً، ذكرنا من قبل أن هذا لا يثبت.

قوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف: (٢٤)] "**قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له**"، وكثير من الأصوليين والفقهاء ينقلون عن ابن عباس -رضي الله عنهما- "**يستثني ولو إلى سنة**" وفي بعض الروايات أكثر من هذا، ونقل عن بعض السلف كذلك بعض الأقوال القريبة، وبعضهم يفهم من هذا أن الاستثناء في اليمين يؤثر في اليمين ولو بعد حين.

وهناك كلام للعلماء على مسائل متعددة للاستثناء:

- مسألة الاستثناء بإلا، هل يصح أن يكون المستثنى أكثر من جنس المستثنى منه أو لا ؟ وهل الاستثناء يعود إلى جميع المذكورات قبله سواء كانت جملاً أو كانت مفردات؟

ثم نزول جبريل -عليه السلام- بسورة أصحاب الكهف. كما أورد السيوطي في الدر المنثور ٣٧٦/٥-٣٧٧ عن مجاهد هذه القصة، وفيه "فأنزل الله هذه الآية ". وقد عزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

كما أنهم يتكلمون أيضاً على الاستثناء، هل يشترط أن يكون من متكلم واحد، أو أنه يصح لو أن الاستثناء كان من آخر؟ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما حرم مكة، وأنه لا يقطع شجرها، أو لا يعضد، فقال العباس: إلا الإذخر[٣].

- مسألة اشتراط الاتصال بين المستثنى والمستثنى منه، وقد تكلم العلماء على قضايا دقيقة فيما لو أنه استثنى وعرض له عارض طبيعي، -سعال أو عطاس- فهل يؤثر هذا أو لا يؤثر؟

- لو أنه استثنى بعد سكتة، فلو قال: لك عليّ مائة، ثم سكت، ثم قال: إلا عشرة، هل ينفع هذا أو لا ؟ ولو أنه نوى ذلك بقلبه هل تنفع هذه النية أم لا ؟

وقد ذكر ابن كثير وابن جرير –رحمهما الله- أن مقصود ابن عباس -رضي الله عنهما- ليس من جهة أنه لا يحنث، بمعنى: لو أنه حلف على شيء ثم قال: إن شاء الله بعد سنة، ولم يفعل هذا الشيء الذي حلف على فعله لا يحنث، فلو قال: إن شاء الله بعد سنة فإنه تجب عليه الكفارة، وإنما المقصود أن يتأدب بما أدبه ربه -تبارك وتعالى- وهو أن يعلق ذلك بمشيئته، فلا يكون شيء إلا بمشيئة الله -عز وجل-، فإذا تذكر بعدُ غفلته عن الاستثناء فإنه يقول: إن شاء الله، وإن كان هذا لا يؤثر من جهة الحكم، فهذا مقصود ابن عباس -رضي الله عنهما-، وبهذا الاعتبار يكون القول بوجوب الاتصال في الاستثناء بين المستثنى والمستثنى منه متوجهاً لا إشكال فيه إلا للعوارض الطبيعية فإن ذلك لا يؤثر.

وقد تكلم العلامة ابن القيم –رحمه الله- على الأثر الوارد عن ابن عباس –رضي الله عنهما-، فقال رحمه الله: "وتفسير الآية عند جماعة المفسرين أنك لا تقل لشيء أفعل كذا وكذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت أن تقولها فقلها متى ذكرتها، وهذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، وتأول عليه الآية، وهو الصواب.

فغلط عليه من لم يفهم كلامه، ونقل عنه: أن الرجل إذا قال لامرأته: أنت طالق ثلاثاً، أو قال: نسائي الأربع طوالق ثم بعد سنة يقول: إلا واحدة، أو إلا زينب أن هذا الاستثناء ينفعه، وقد صان الله عن هذا من هو دون غلمان ابن عباس بكثير فضلاً عن البحر حبر الأمة وعالمها الذي فقهه الله في الدين، وعلمه التأويل، وما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً، وإن ساعد الله أفردنا له كتاباً، والذي أجمع عليه المفسرون: أن أهل مكة سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، فقال: أخبركم غداً ولم يقل: إن شاء الله، فتلبث الوحي، ثم نزلت هذه الآية، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم: معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثنِ، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: ويجوز الاستثناء إلى سنة، وقال عكرمة -رحمه الله-: واذكر ربك إذا غضبت، وقال الضحاك والسدي: هذا في الصلاة، أي: إذا نسيت الصلاة فصلِّها متى ذكرتها"[٤].

---

٣ - رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الإذخر والحشيش في القبر (٩٢/٢)، برقم (١٣٤٩)، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام (٩٨٦/٢)، برقم: (١٣٥٣)..

٤ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٤٠٣/٢).

وقال -رحمه الله-: "وقد قال الله تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الكهف(٢٣-٢٤)] وهذا ليس بيمين.

ويشرع الاستثناء في الوعد والوعيد، والخبر عن المستقبل، كقوله: غداً أفعل إن شاء الله، وقد عتب الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم- حيث قال لمن سأله من أهل الكتاب عن أشياء: ((غداً أخبركم)) ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه شهراً، ثم نزل عليه: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الكهف(٢٣-٢٤)] الآية، أي: إذا نسيت ذلك الاستثناء عقيب كلامك فاذكره به إذا ذكرت، هذا معنى الآية، وهو الذي أراده ابن عباس -رضي الله عنهما- بصحة الاستثناء المتراخي، ولم يقل ابن عباس قط ولا من دونه: إن الرجل إذا قال لامرأته أنت طالق أو لعبده أنت حر، ثم قال بعد سنة: إن شاء الله أنها لا تطلق، ولا يعتق العبد، وأخطأ من نقل ذلك عن ابن عباس، أو عن أحد من أهل العلم ألبته، ولم يفهموا مراد ابن عباس".

لو أن قائلاً قال بأنه يصح الاستثناء المتراخي ويؤثر ذلك حكماً، فمعنى ذلك أنه لا كفارة يمين ولا نذر ولا شيء، وكل من نذر ولو بعد سنة قال: إن شاء الله، ثم بعد ذلك لا يلزمه الكفارة ولا الوفاء بالنذر، فهذا ما يقول به أحد؛ فلماذا شرعت كفارة الأيمان ووجب الوفاء بالنذور؟

فالمقصود: أن الإنسان إذا قال في اليمين أو في النذر: إن شاء الله، فإن ذلك لا يلزم معه الكفارة لو وقع الحنث، لا يلزمه كفارة، لكن إذا قال الإنسان: سأفعل الشيء الفلاني غداً، فمن الأدب المتعين أن يقول: إن شاء الله، فإذا نسي أن يقول: إن شاء الله فتذكر بعد حين فإنه يراجع نفسه ويقول: إن شاء الله؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، هذا من حيث الأدب اللائق في الكلام ورد الأمور إلى مشيئة الله -تبارك وتعالى- لا من حيث ترتب الأحكام الشرعية عليه.

قوله: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٤)] أي: الاستثناء، وكثير من الناس يفهم من هذه الآية من ظاهرها أنه إذا نسي شيئاً أو نسي كلاماً أراد أن يقوله قال: لا إله إلا الله، وبعض الناس يقول: اللهم صل على محمد.

وليس هذا هو المراد، بل المعنى {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ} [سورة الكهف (٢٤)] إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله فقل ذلك تأدباً بأن ترجع الأمور إلى مشيئته -تبارك وتعالى-، هذا هو المعنى.

وقوله: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [سورة الكهف (٢٤)] "أي: **إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك**"، وهذا التفسير جيد، وهو لا يخالف قول من قال: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [سورة الكهف (٢٤)] أي: من خبر أصحاب الكهف ونبئهم لأقرب من هذا رشداً، وذكر الله -عز وجل- طرفاً من خبرهم، واختلاف الناس فيهم، وعددهم، والمدة التي بقوا فيها في الكهف، وأحال العلم إليه -سبحانه وتعالى-: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف: (٢٦)] فيعلّم نبيه -صلى الله عليه وسلم- هذا الأدب، وبعضهم يقول: {وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا} [سورة الكهف (٢٤)] يعني: عسى أن يعطيني من الآيات والبينات والحجج على النبوة ما يكون أقرب في الرشد، وأدل من قصة أصحاب الكهف، هكذا قال بعض المفسرين، والآية تحتمل المعنيين.

قوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف (٢٥-٢٦)].

هذا خبَر من الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف (٢٥)].

يعني الذي يُنقل في كتب أهل الكتاب أنهم بقوا ثلاثمائة سنة، وفي القرآن هنا قال: {ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف(٢٥)] المفسرون يقولون: إن الذي في كتبهم ثلاثمائة سنة بناء على السنة الشمسية، والذي ذكره الله -عز وجل- هو بناء على السنة الهلالية بحسابها، فتزيد كل مائة سنة ثلاث سنوات، فثلاثمائة سنة فيها تسع سنوات، يعني: بالحساب الهلالي -السنة القمرية- وهو الحساب المعتبر في الشريعة.

وسبق الإشارة إلى أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كان العمل عندهم على السنة القمرية الهلالية.

ويمكن أن يكون الذي في كتبهم مما أحدثوه إذا قيل: إن المعمول به عندهم هو السنة القمرية، وسبق الكلام على هذا في بعض هذه الدروس، وذكْر كلام ابن القيم -رحمه الله-، وما يحتج به لهذا -وهو اختيار شيخ الإسلام- ما ورد في عاشوراء، يوم نجى الله فيه موسى، فهذا ثابت من جهة السنة الهلالية بالعد، العاشر من محرم، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- واليهود يصومونه، يقولون: هذا يوم نجى الله فيه موسى، فلم يعتبر فيه الحساب الشمسي.

وقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] أي: إذا سُئلت عن لبثهم، وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف(٢٦)] أي: لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه الله عليه من خَلْقه، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ} [سورة الكهف(٢٥)] الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] قال: وفي قراءة عبد الله: {وقالوا ولبثوا} يعني: أنه قاله الناس، وهكذا قال مُطرَف بن عبد الله.

وفي هذا الذي زعمه قتادة نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف(٢٥)] والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله- والله أعلم.

بعدما أعلمه الله -عز وجل- بمدة مكثهم، ثلاثمائة وتسع سنوات، قال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)].

وقد ذكر ابن جرير –رحمه الله–: أي: أنك إن سئلت عن عددهم، وليس عندك توقيف، قبل أن تُخبَر بهذا، باعتبار أنهم سألوه قبل ذلك فـ {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [(٢٦) سورة الكهف].

قوله: "**وقال قتادة في قوله: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ} [سورة الكهف(٢٥)] الآية، هذا قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] قال: وفي قراءة عبد الله: {وقالوا ولبثوا} يعني: أنه قاله الناس، وهكذا قال مُطرَف بن عبد الله**".

هذا خلاف ظاهر القرآن، فظاهر القرآن أن هذا من كلام الله، ومن إخباره لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، فيحتجون بهذه القراءة، وهي بطبيعة الحال ليست من القراءات المتواترة.

تكلموا في مدة مكثهم من غير علم {وقالوا ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة} ثم قال الله له: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] ليس كما يقولون.

لكن هذا القول بعيد، والقراءة المتواترة لا تشعر بهذا لا من قريب ولا من بعيد، فالله يخبر عن مدة مكثهم، {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)]، وعليه فكلام ابن كثير أنك إن سئلت عن عددهم قبل أن ينزل عليك في ذلك من العلم بالمدة التي بقوها ففوض العلم إلى الله، فقل: الله أعلم بما لبثوا.

ومن أهل العلم من يقول: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] المدة التي بقوها في الكهف في نومهم كانت هذه المدة ثلاثمائة وتسع سنوات، لكن كم بقوا بعدها ؟

ابن جرير -رحمه الله- يقول: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] هذه ليست في مدة نومتهم، وإنما فيما هو أوسع من هذا، وهو ما كان من مدة بقائهم وحياتهم بعد استيقاظهم.

فهل حينما ذهب هذا يتسوق لهم ورجع وتبعه الناس كما في بعض الروايات الإسرائيلية، واكتشفوا خبره، وجاءوا معه إلى الكهف، فدخل ثم عُمِّي خبرهم على الناس، ولا يدرون أين ذهب، أو أنه الملِك جاء وجلس معهم؟ ثم بعد ذلك ودّعوه، ثم أخلدوا إلى النوم، ثم بعد ذلك قبضوا وماتوا، كم جلسوا بعد استيقاظهم هذا؟ هل رجعوا إلى المدينة مع الناس؟ مع أن هذا خلاف الظاهر؛ لأنهم قالوا: {ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ} [سورة الكهف(٢١)] فيدل على أنهم ما غادروا هذا الكهف، لكن كم كانت مدة البقاء بعد هذا؟

ابن جرير يقول: هذا هو المراد بقوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] ذكر لهم مدة النومة، ثم قال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] يعني: بعدها.

وبعضهم كابن عطية يقول: المراد: قل الله أعلم بما لبثوا بمدة بقائهم إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- حيث أعلمه الله بخبرهم، وما وقع لهم من هذه الواقعة العجيبة. وهذا فيه بعد، في مدة لبثهم إلى زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-، كم للواقعة من قرن؟!

قوله: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] ابن جرير يقول: إلى مدة الإعثار عليهم {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ} [سورة الكهف (٢١)] بعدما استيقظوا كم جلسوا ثم عثر عليهم ساعات أو يوماً؟ كم بقوا ؟ فقال: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف(٢٦)] والكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا له وجه جيد من النظر، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن المراد بذلك: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] المراد هذه التسع التي ازدادوها على الثلاثمائة: {وَازْدَادُوا تِسْعًا} [سورة الكهف (٢٥)] هل هي تسع سنوات أو تسع ليالٍ أو تسع ساعات أو

تسعة أشهر؟ وهذا لا يخلو من بعد -والله أعلم-، فإذا ذُكرت السنوات: ثلاثمائة سنة وذكرت زيادة التسع عليها فالأصل أن ذلك في عداد السنين.

وقوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف (٢٦)] أي: أنه لبصير بهم، سميع لهم.

قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه! وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع! لا يخفى عليه من ذلك شيء.

ثم روي عن قتادة في قوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف(٢٦)] فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع.

وقوله: {مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف (٢٦)] أي: أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

في قوله: {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف(٢٦)] يعني: ما أعظم سمعه وما أنفذ بصره -سبحانه وتعالى-! يسمع جميع الأصوات الخفيات والجليات، ويرى جميع المبصرات كذلك؛ ولما قال الله -عز وجل-: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم (٣٨)] يعني: ما أعظم السمع الذي يسمعونه، والبصر الذي يبصرونه، وهذا كما قال الله -عز وجل-: {وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا} [سورة النساء (١٠٨)] معهم يعني: بسمعه وإحاطته: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ} [سورة المجادلة(٧)].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٦)

من قوله تعالى"واتل ما أوحي إليك" الآية ٢٧ إلى قوله تعالى"لأجدن خيرا منها منقلبا" الآية ٣٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمنا الله تعالى وإياه- في تفسير قوله تعالى:

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف(٢٧-٢٨)].

يقول تعالى آمرًا رسوله -عليه الصلاة والسلام- بتلاوة كتابه العزيز، وإبلاغه إلى الناس: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سورة الكهف(٢٧)] أي: لا مغير لها، ولا محرف، ولا مؤوّل.

وقوله: {وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف(٢٧)] عن مجاهد: {مُلْتَحَدًا} قال: ملجأ، وعن قتادة: وليًا ولا مولى، قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتلُ ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [سورة المائدة(٦٧)] وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} [سورة القصص(٨٥)] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

وقوله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الكهف (٢٨)] أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء، يقال: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الأنعام: (٥٢)] الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف (٢٨)] الآية.

وروى مسلم في صحيحه عن سعد -هو ابن أبي وقاص- قال: كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ستة نفر، فقال المشركون للنبي -صلى الله عليه وسلم-: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله -عز وجل-: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الأنعام(٥٢)] انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري(١).

وقوله: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف (٢٨)] قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعني: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.

{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} [سورة الكهف (٢٨)] أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] أي: أعماله وأفعاله سفه، وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له، ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طــه (١٣١)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فبقي الكلام على الضمير في قوله –تبارك وتعالى-: {مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف (٢٦)].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس، ولم يبين مرجع الضمير، فمن أهل العلم من يقول: إن ذلك يرجع إلى أصحاب الكهف {أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ} [سورة الكهف (٢٦)] يعني: أصحاب الكهف الذين أورد خبرهم؛ لأنه قال: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا} [سورة الكهف (٢٥)] يعني: أصحاب الكهف {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا} [سورة الكهف (٢٦)] فمن قال: إن ذلك يرجع إلى أصحاب الكهف بنى على الأصل والقاعدة، وهي: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها.

ومن أهل العلم من يقول: إن ذلك يرجع إلى الكفار الذين عاصروا النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعضهم يقول: ذلك عائد إلى الخلق عموماً، ولا يختص بالكافرين؛ لأن الله -عز وجل- قال: {لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ} [سورة الكهف (٢٦)] ما أبصره وما أسمعه -سبحانه وتعالى- بأحوال خلقه أجمعين! {مَا لَهُم} [سورة الكهف (٢٦)] أي: الخلق، فيكون الضمير هنا عائداً إلى غير مذكور فيما سبق، وهذا يوجد في القرآن وفي كلام العرب إذا فهم من الكلام، والعرب تستعمله من باب الاختصار ثقة بفهم السامع {مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ} [سورة الكهف (٢٦)]، كما في قوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [سورة ص (٣٢)] على قول من فسر ذلك -كما هو مشهور- بالشمس، توارت الشمس بالحجاب، مع أن الشمس لم يكن لها ذكر {فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [سورة ص (٣٢)] فبعضهم يقول: الخيل انطلقت حتى غابت، أي: أبعدت، وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى الشمس، حتى توارت الشمس بالحجاب، ولم يكن للشمس ذكر.

فقوله: {مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [سورة الكهف (٢٦)] وحكمه هنا يشمل الحكم القضائي الكوني، فالله -تبارك وتعالى- هو المنفرد وحده -جل جلاله- في تدبير هذا الكون، كما أنه يشمل

---

١ - أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنــه- (٤/ ١٨٧٨- ٤٦) (٢٤١٣).

أيضاً الحكم الشرعي {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ} [سورة يوسف (٤٠)] فالله -تبارك وتعالى- لا يشرك في حكمه أحداً.

ثم قال الله -تبارك وتعالى-: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف(٢٧)] قوله: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} هذه اللفظة من حيث هي تحتمل أن يكون المراد الكلمات الكونية فلا مبدل لها، فإذا قضى الله أمراً فلابد أن يكون، تقول: ((أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزها بر ولا فاجر))[٢]، وليس بمحظور شرعا أن يراد بالكلمات هنا الكلمات الشرعية؛ لأنه استعاذ بغير مخلوق، فالكلمات الشرعية هي الآيات، وهي كلام الله -عز وجل-، كما تستعيذ بالصفة أيضاً غير الكلام، تقول: ((أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر))[٣] ولكن الأقرب أن المراد بالكلمات في قولك: (أعوذ بكلمات الله التامات) أنها الكلمات الكونية؛ وذلك لأن العبارة بعدها هي: ((التي لا يجاوزها بر ولا فاجر)) الكلمات الشرعية يجاوزها الكافر، وأما الكلمات الكونية فلا يستطيع أحد أن يجاوزها، والأمر: أن من يقول ذلك إنما يريد بهذا الحفظ والوقاية، فالمناسب أن يستعيذ بالكلمات الكونية.

وأما قوله: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سورة الكهف (٢٧)] فالكلمات هنا تحتمل أن يكون المراد بها الكلمات الشرعية، وتحتمل أن يراد الكلمات الكونية، والأقرب والأعلق بالسياق الكلمات الشرعية؛ لقرينة الأمر بالتلاوة فيما قبله {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف (٢٧)] فهذه كلماته {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [سورة الكهف (٢٧)]، والتبديل هنا بمعنى التغيير والتحريف.

يقول: {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف (٢٧)] قال: ملجأ، هذا عن مجاهد، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، وهذا بمعنى قول مجاهد، لا تجد ملجأً بمعنى لا تجد ولياً يتولاك وينصرك ويحفظك وتلجأ إليه وتعتصم به.

قال: "**قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله**" وهذا بمعنى ما سبق "لا ملجأ لك" والضمير يرجع إلى الله وحده، لا شريك له، فكلام ابن جرير مختصر هنا، وهو أطول من هذا.

ومن أهل العلم من يقول غير هذا، فيقول: كل ما ذكر يرجع إلى معنىً واحد وهو: "لن تجد ملجأً"، ومن أهل العلم من يقول: {وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف (٢٧)] يعني: لن تجد معدلاً عن أمره ونهيه.

وقد يتضح وجه هذا القول ببيان معنى الأمر في قوله: {وَاتْلُ} هل المراد به التلاوة بمعني القراءة، أو المقصود به الاتباع، فإذا فسر بالاتباع {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف(٢٧)] يعني: اتبع ما أوحي إليك من كتاب ربك.

ثم قال له: {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} [سورة الكهف (٢٧)] أي: معدلاً تعدل به عن أمره ونهيه وطاعته، فإن ذلك لا يسع المكلف، والقول الأول هو قول الجمهور، وابن جرير -رحمه الله- في

---

٢ - أخرجه أحمد (٢٤/ ٢٠٢-١٥٤٦١) والطبراني في الأوسط (٣١/٢ - ٥٥٤٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٨٤٠) وصحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٧٦).

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء (٤/ ١٧٢٨- ٦٧) (٢٢٠٢).

ظاهر كلامه جمع بين المعنيين، فذكر ما خلاصته وحاصله في قوله: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ} [سورة الكهف (٢٧)] يعني: أن هذا أمر بالتلاوة والقراءة والعمل والامتثال والتطبيق، يتبع ما يأمره الله به ويوجهه إليه هذا القرآن.

ثم قال: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [سورة الكهف(٢٧-٢٨)] ذكر الغداة والعشي هنا، ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود سائر الأوقات، وإنما ذكر هذين الوقتين لإفادة العموم، وهذا يوجد في القرآن، وهو قول وجيه.

"بالغداة والعشي" يذكر الطرفين ويكون المقصود أحياناً الجميع، كما قال الله -عز وجل-: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [سورة البقرة (١١٥)] فلا يأتي غبي ويقول: فأين الوسط ؟ فهذا ليس من لغة العرب في شيء، أو يقول: لماذا ذكر المشرق؟ وباقي الأشياء في هذا العالم لمن؟ يقال: ذكْر الطرفين يدل في كلام العرب على إرادة الجميع، وإلا كان ذلك عجمة في الفهم، يعني لو أنه غاب هذا المعنى عن أحد فإن ذلك يكون عجمة في فهمه.

وقوله: {بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف(٢٨)] فالغداة أول النهار، والعشي: آخر النهار، يعني من بعد الزوال هذا يقال له: عشي، وصلاة الظهر والعصر من صلاة العشي.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ} [سورة الكهف(٢٨)] فهل هذا أمر له أن يصبر نفسه فقط في هذين الوقتين بمعنى أنه في أول النهار وآخر النهار؟ أو أن المقصود أن يكون هؤلاء هم جلساؤه، ولا يلتفت عنهم إلى غيرهم؟ هذا إذا فسر صبر النفس معهم بالغداة والعشي، ولكن الآية تحتمل معنىً آخر، أن يكون قوله: {بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف(٢٨)] يتعلق بما قبله: يدعون ربهم بالغداة والعشي {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [سورة الكهف(٢٨)] فيكون ذلك عائداً إلى دعائهم، ودعاؤهم أيضاً إذا كان ذلك مما يعود إليه هل يختص بالغداة والعشي؟ الجواب: لا، والدعاء هنا يشمل السؤال ويشمل العبادة، فإنهم يدعون الله -عز وجل- في كل آن وحين.

ثم يقول: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} [سورة الكهف (٢٨)] أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع {فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] يحتمل أن يكون من الإفراط، وهو الزيادة ومجاوزة الحد {وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف (٢٨)] يعني: أنه جاوز الحد الذي حده الشارع، وجاوز حد الاعتدال، ويحتمل أن يكون ذلك من التفريط وهو بمعنى التقصير والتضييع.

قال ابن القيم -رحمه الله-: "قال تعالى عن الإغفال: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [سورة الكهف(٢٨)] سئل أبو العباس ثعلب عن قوله: {أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا} [سورة الكهف(٢٨)] فقال: جعلناه غافلاً، قال: ويكون في الكلام أغفلته سميته غافلاً، ووجدته غافلاً.

قلت: الغفل الشيء الفارغ، والأرض الغفل التي لا علامة بها، والكتاب الغفل الذي لا شكل عليه، فأغفلناه تركناه غفلاً عن الذكر فارغاً منه، فهو إبقاء له على العدم الأصلي؛ لأنه سبحانه لم يشأ له الذكر فبقي غافلاً،

فالغفلة وصفه، والإغفال فعل الله فيه بمشيئته، وعدم مشيئته لتذكره، فكل منهما مقتض لغفلته، فإذا لم يشأ له التذكر لم يتذكر، وإذا شاء غفلته امتنع منه الذكر، فإن قيل: فهل تضاف الغفلة والكفر والإعراض ونحوها إلى عدم مشيئة الرب؟ فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً، ومعنى الفرط: قد فسر بالتضييع، أي: أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رشده وفلاحه ضائع، قد فرط فيه، وفسر بالإسراف، أي: قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق، وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود أن الله -سبحانه وتعالى- نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى -عز وجل-، واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت[٤].

{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] **يقول تعالى لرسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: وقل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ}** [سورة الكهف (٢٩)] **هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: {إِنَّا أَعْتَدْنَا}** [سورة الكهف (٢٩)] **أي: أرصدنا {لِلظَّالِمِينَ} وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}** [سورة الكهف (٢٩)] **أي: سورها.**

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: {أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [سورة الكهف (٢٩)] **قال: حائط من نار.**

وقوله: {وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [سورة الكهف (٢٩)] **قال ابن عباس: المهل: ماء غليظ مثل دردي الزيت.**

وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حَرّه، وقال آخرون: هو كل شيء أُذيبَ.

وقال قتادة: أذاب ابن مسعود شيئًا من الذهب في أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل.

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وأهلها سود.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: {يَشْوِي الْوُجُوهَ} [سورة الكهف (٢٩)] **أي: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقَرّبه من وجهه شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه.**

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها، فاجتثت جلود وجوههم، فلو أن مارًّا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء

---

[٤] - الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٤١)

كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود.

ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: {بِئْسَ الشَّرَابُ} [سورة الكهف (٢٩)] أي: بئس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: {وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} [سورة محمد (١٥)] وقال تعالى: {تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} [سورة الغاشية (٥)] أي: حارة، كما قال: {وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} [سورة الرحمن (٤٤)].

{وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] أي: وساءت النار منزلاً ومَقيلاً ومجتمعًا وموضعًا للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى: {إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان (٦٦)].

قوله: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف (٢٩)] ظاهره أن قوله: {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف (٢٩)] من جملة ما أُمر أن يقوله، أي: قل لهم ذلك، ويحتمل أن يكون هذا مما ظاهره الاتصال وهو مفصول في المعنى، بمعنى أن كل جملة من هذه تختلف من جهة قائلها، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور أن يقول: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ} [سورة الكهف (٢٩)] ويكون ما بعده: {فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [سورة الكهف (٢٩)] من كلام الله -عز وجل-، ليس من جملة ما أمر الله -عز وجل- نبيه أن يقوله لهم، والأول -والله تعالى أعلم- أقرب.

والتوجيه الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في أقوال السلف في معنى المُهل هو توجيه جيد، يجمع هذه الأقوال باعتبار أن ذلك أشبه ما يكون باختلاف التنوع.

وقوله: {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] قال: أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق.

ومعنى المرتفَق عند بعض أهل العلم، أي المتكَأ، يقال له: ارتفاق، بمعنى اعتماد واتكاء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لا آكل مُتكئاً))[٥] من أهل العلم من فسر ذلك بالتربع، وابن القيم -رحمه الله- أدخل التربع في جملة الاتكاء باعتبار أن المتربع يحتاج إلى نوع من هذا الاعتماد، كما تشاهدون الآن من جلس منكم هكذا فإنه يعتمد بيديه، فأدخله في جملة الاتكاء، وإن كان الاتكاء يشمل صوراً أخرى ذكرها، حتى الاعتماد على الظهر ذكره في جملته، فضلاً عن الاتكاء المعروف المتبادر، وهو حينما يتكئ الإنسان على يده ويعتمد عليها.

قوله: {وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف(٢٩)] أي: منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كل هذا يبين المعنى، والله تعالى أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٣٠-٣١)].

---

٥ - أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب الأكل متكئاً (٧/ ٧٢- ٥٣٩٨).

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم {جَنَّاتُ عَدْنٍ} [سورة الكهف (٣١)] والعدن: الإقامة.

{تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [سورة الكهف (٣١)] أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال لهم فرعون: {وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي} [سورة الزخرف (٥١)] الآية.

{يُحَلَّوْنَ} [سورة الكهف (٣١)] أي: من الحلية {فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ} [سورة الكهف (٣١)] وقال في المكان الآخر: {وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} [سورة فاطر (٣٣)] وفصله هاهنا فقال: {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ} [سورة الكهف (٣١)] فالسندس: لباسٌ رِفاعٌ رِقاقٌ كالقمصان، وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج، وفيه بريق.

وقوله: {مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} [سورة الكهف (٣١)] الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث الصحيح: ((أما أنا فلا آكل متكئًا))[٦] فيه القولان.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

يقول: الحَجَلة –محركة- كالقُبّة، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس، حجل وحجال، يقول: وحجلها تحجيلاً اتخذ لها حجلة، أو أدخلها فيه، لكن هنا يقول: والأرائك جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، بمعنى أن الكبير الذي تجلس فيه العروس، الأريكة يقصد أنها دونه، يجلسون على الأرائك، وهو السرير الصغير، تحت الحجلة ليس المقصود تحتها أسفل منها، وإنما المقصود أصغر منها، تقول: فلان تحت فلان، يعني أصغر منه، هذه السارية تحت هذه السارية بمعنى أصغر منها، تحت الحجلة يعني دون الحجلة.

الباشخاناه هي الكنب، محل الجلوس؛ لأن الحجلة -المكان الذي تجلس عليه العروس- مرتفعة، لكنه يقول: أكبر من هذا، فصار هذا مثل الباشخاناه، يعني ربما يكون الكنب أو نحو هذا مما نسميه اليوم.

وقوله: {نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٣١)] أي: نعمت الجنة ثوابًا على أعمالهم {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٣١)] أي: حسنت منزلاً ومقيلاً ومقامًا، كما قال في النار: {بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا} [سورة الكهف (٢٩)] وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: {إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان (٦٦)] ثم ذكر صفات المؤمنين، فقال: {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [سورة الفرقان (٧٥-٧٦)].

الأريكة: سرير في حجلة، أو كل ما يُتكأ عليه من سرير، وليس المقصود السرير الذي نعرفه اليوم -وهو مكان النوم الذي ينام عليه-، وإنما السرير موضع الجلوس، مثل موضع جلوس الملك، يقال: سرير المَلِك وسرير المُلك.

يقول: من سرير ومنصة وفراش أو سرير منجَّد، المنجد: يقول: متخذ مزين في قبة أو ببيت، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة.

---

٦ - أخرجه الترمذي في أبواب الأطعمة، باب ما جاء في كراهية الأكل متكئاً (٤/ ٢٧٣- ١٨٣٠) وغيره. وصححه الألباني في الإرواء (١٩٦٦/٢٧/٧).

{وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا} [سورة الكهف(٣٢-٣٦)].

يقول الله تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بالأموال وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله {لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ} [سورة الكهف(٣٢)].

الذي يذكره ابن كثير -رحمه الله- هنا هو ما يعرف بالمناسبة، يعني ما المناسبة بين ذكر خبر هذين الرجلين أصحاب الجنتين وبين ما قبلهم؟ فهو يقول: هؤلاء لمّا ترفعوا عن مجالسة الضعفاء والمساكين ذكر الله -عز وجل- لهم مثلاً من حال المترفعين، وما كان إليه مآلهم.

وافتخروا عليهم بالأموال وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين جعل الله {لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ} [سورة الكهف(٣٢)] أي: بستانين من أعناب، محفوفتيْن بالنخل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ في غاية الجود؛ ولهذا قال: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} [سورة الكهف (٣٣)] أي: خرجت ثمرها {وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا} [سورة الكهف (٣٣)] أي: ولم تنقص منه شيئًا {وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا} [سورة الكهف (٣٣)] أي: والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا.

{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [سورة الكهف (٣٤)] قيل: المراد به: المال، رُوي عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار، وهو أظهر هاهنا، ويؤيده القراءة الأخرى: "وكان له ثُمْر" بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون جمع ثَمَرَة، كَخَشَبَة وخُشْب، وقرأ آخرون: {ثَمَرٌ} بفتح الثاء والميم.

الذين قالوا: إن المقصود به المال -بعضهم قال: ذهب وفضة- الذي حملهم على هذا هو أن الله -عز وجل- قال قبله: {كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا} [سورة الكهف: (٣٣)] يعني: ثمرها، فكيف قال بعده {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [سورة الكهف (٣٤)]؟

ففهموا منه أن هذا يفيد معنىً جديداً، وهو أن هذا الثمر شيء زائد على ما آتته تلك الجنة {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} يعني: كان له مال، هكذا قال بعض السلف، والأقرب -والله أعلم- هو ما ذكره ابن كثير، وهو ما اختاره ابن جرير أيضاً بأن معنى: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ} [سورة الكهف (٣٤)] يعني: من الثمار المعروفة كان له ثمر، فحمله ذلك على شيء من البطر والطغيان والغرور.

فقال -أي صاحب هاتين الجنتين- {لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} [سورة الكهف (٣٤)] أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [سورة الكهف (٣٤)] أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.

قال قتادة: تلك -والله- أمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النفر.

وقوله: {وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ} [سورة الكهف (٣٥)] أي: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد {قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} [سورة الكهف (٣٥)] وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار.

قوله: {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [سورة الكهف (٣٤)] قال: أي خدماً وحشماً وولداً، والنفر: يقول أهل اللغة: إن المراد بهم الرهط، وهو ما دون العشرة.

وقوله: {وأَعَزُّ نَفَرًا} يدل على أن الإنسان يتكثر بما عنده من الأولاد والمماليك والخدم.

قال: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} [سورة الكهف (٣٥)] وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} [سورة الكهف (٣٦)] أي: كائنة {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا} [سورة الكهف (٣٦)] أي: ولئن كان معاد ورجعة وَمَرَدٌّ إلى الله ليكونَنّ لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى: {وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى} [سورة فصلت (٥٠)] وقال: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا} [سورة مريم (٧٧)] أي: في الدار الآخرة، تألّى على الله -عز وجل-، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان.

(مسألة)

الأصل أن الإنسان إذا قال: سأفعل كذا أن يقول: إن شاء الله، ولهذا قال الله معلماً ومؤدباً: {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ} [سورة الفتح: (٢٧)] مع أن ذلك متحقق، وهو وعد من الله -عز وجل-، وما ورد عن بعض السلف أو بعض أهل العلم من الجزم في بعض الأشياء، والقطع بها فإنما قصدوا بذلك -والله تعالى أعلم- بيان شدة وثوقهم بهذا الأمر الذي كانوا يعتقدون تحققه لا محالة، مما قد يتردد فيه ويتشكك ويتخوف آخرون وتنتابهم المخاوف، ويقع في نفوسهم ما يقع، فيريد أن يجزم لهم، ويؤكد لهم أن هذا الأمر لا تردد فيه، فيقول مثل هذا القول بهذا الاعتبار؛ ليورث في نفوسهم ثقة ووثوقاً بهذا الأمر الذي ذكره، هذا هو مقصودهم، وتخريج ما ورد عنهم في هذا.

فسفيان الثوري يقول: إنه كافر برب هذه البنية -يعني الكعبة- إذا دخلها أبو جعفر المنصور، بعدما أرسل أبو جعفر الخشابين لصلب سفيان الثوري في مكة، فكان سفيان الثوري نائماً بين الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة، وضع رأسه في حجر هذا، ورجليه في حجر الآخر، ويقولون له: لا تشمت بنا أهل البدع، اخرج منها، اطلب مكاناً، إنه قد أقسم أن يقتلك، فيقول: إنه كذا.

وشيخ الإسلام لما قال: إنكم منصورون هذه المرة، ويقولون له: قل: إن شاء الله، وهو يؤكد ويحلف، لما أصروا عليه قال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، فهذا إنما قصد به القائل بيان شدة وثوقه بهذا الأمر الذي اعتقده اعتقاداً جازماً؛ لأن الكثيرين إذا سمعوا هذا الاستثناء، ظنوا أن المسألة ليست جازمة، ولهذا بيّن لهم شيخ الإسلام قال: تحقيقاً لا تعليقاً، والأصل أن الإنسان إذا ذكر المشيئة لا يذكر معها هذا، فهذا المراد والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٧)

من قوله تعالى"قال له صاحبه وهو يحاوره" الآية ٣٧ إلى قوله تعالى"خير عند ربك ثوابا وخير أملا" الآية٤٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال تعالى: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} [سورة الكهف:٣٧-٤١]، **يقول تعالى مخبرًا عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظًا له، وزاجرًا عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ}** الآية، **وهذا إنكار عظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** أي: كيف تجحَدُون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه؟، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدومًا ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستندًا إلى شيء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شيء؛ ولذا قال: **{لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي}** أي: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية **{وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}** أي: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا} هذا تحضيض وحث على ذلك، أي: هلّا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: **{مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ}**؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: **{مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ}** وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: **((ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله))**[1].

---

١ - رواه البخاري، كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، برقم (٦٢٣٦)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، برقم (٢٧٠٤).

وقوله: {فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ} أي: في الدار الآخرة {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا} أي: على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى {حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ} قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهري: أي: عذابًا من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} أي: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدم.

وقال ابن عباس: كالجُرز الذي لا ينبت شيئًا.

وقوله: {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا} أي: غائرًا في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ} أي: جارٍ وسائح، وقال هاهنا: {أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا} والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ} الآية، هنا سماه صاحباً له، وهذا كما سبق في بعض المناسبات أن ذلك يكون لملابسة واشتراك في أمر من الأمور، فهنا هذا صاحب له باعتبار أنه نصحه وسمع منه هذا الكلام ودخل معه في الجنة وجرى بينهما هذا الحوار، يقول: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ}، وقد يكون ذلك يقال لملازمة، كما قال الله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، {أَصْحَابُ النَّارِ}، وقد يكون هذا الملازم مذموماً لكنه لما حصلت هذه الملازمة قيل: هذا صاحب، وتجدون في بعض المواضع من الأحاديث ما يشبه هذا، والمقصود من ذلك أن من الناس من يتوهم ويسبق إلى ذهنه من إطلاق هذه اللفظة أنها تدل على نوع من المصافاة والمؤاخاة، وذلك ليس بلازم، هذا هو المقصود، ولهذا جاء في حديث القسامة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال للمطالبين بالدم، لما وجههم إلى الحلف -أن يحلفوا خمسين يميناً- قال: ((وتستحقون صاحبكم))[٢]، قال بعض العلماء: تستحقون صاحبكم يعني القتيل، تستحقون دمه، ولكن يعني الدية، بمعنى أنه لا يسلم لهم القاتل ليقتل في القسامة، ومن أهل العلم من يقول: لا يقتل أحد في القسامة؛ لأن ذلك ليس من البينات وإنما وجد قرينة ولوث، إنسان يتشحط بدمه في ناحية والتهمة لحقت أحداً من الناس، فيأتي أولياء الدم ويتهمون هذا ويقسمون خمسين يميناً على تفصيل في ذلك، ثم قال: ((وتستحقون صاحبكم))، تستحقون صاحبكم يعني الدية، صاحبكم القتيل، أو تستحقون صاحبكم يعني الذي قتله، بمعنى يسلم إليهم فيُقتص منه، فالذين قالوا عنه صاحب نظروا إلى ما يتبادر إليه الذهن قالوا: المقصود القتيل هو صاحبهم، وذاك عدوهم، ومن نظر إلى أن ذلك يطلق لملابسة ما قال: ((تستحقون صاحبكم)) يعني: القاتل، وفي حديث معاذ بن عفراء قال عبد الرحمن بن عوف: هذا صاحبكم، وهو عدو، وإنما أرادوا قتله، وهنا {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ} هذا مؤمن وهذا كافر، لكن ذلك يوجد لنوع من الملابسة، وهذا لا يشكل، وهكذا ما يقال في الأخوة ونحو ذلك، كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، وكان القائلون هم أهل النفاق وليسوا بضعفاء الإيمان، فقالوا ذلك للمنافقين فهم إخوانهم، أو أنهم

---

٢ - رواه مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة، برقم (١٦٦٩)، والنسائي، كتاب القسامة، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر سهل فيه، برقم (٤٧١٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٥٦٢٥).

قالوه للمؤمنين، فتكون المؤاخاة هنا إما بالنسب كما قال بعضهم، وإما بالقبيلة بحيث يرجع إلى قبيلة من الأوس أو من الخزرج، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، وإما أن يكون الاشتراك في البلد، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا}، وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال ذلك للكافر.

قال: {لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي} يقول: **أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية**، {لَّكِنَّا} أصلها "لكن أنا"، ويدل على هذا قراءة أُبيّ {لكن أنا هو الله ربي}، وهذا الذي عليه عامة أهل العلم من أصحاب المعاني وغيرهم من المفسرين، وهذا بمعنى كلام ابن كثير، أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية.

وقوله: {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} يقول: **هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلّا إذ أعجبتك حين دخلت ونظرت إليها**، هلا هذه، {وَلَوْلَا} هي للتحضيض، وهي على نوعين: إن كان في أمر يمكن استدراكه كما في هذا الموضع فإنها تكون للتحضيض، كقولك: هلا اجتهدت، هلا حافظت على الصلوات، هلا أقبلت على كتاب الله، فهذا للتحضيض، وأحياناً تكون للتبكيت، كقولك: لولا حافظت على الصلاة، لولا أقبلت على كتاب الله، وأحياناً تكون للتبكيت في الأمر الذي لا يمكن استدراكه، {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ...} [سورة هود:١١٦]، هلكت تلك الأمم، فهذا يكون للتبكيت، و{وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} يقول: **ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله**، إلى آخره، وهذا من الأدب في هذا المقام، فالإنسان يخرج من حوله وطوله ومشيئته، بمعنى أنه لا يعجب ولا يغتر إذا رأى شيئاً من ماله أعجبه، أو من قدراته أو من ذكائه أو من قواه البدنية أو نحو ذلك، يخرج من حوله وطوله، ويوقن أن القوة لله -عز وجل-، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لا لدفع العين كما يظنه كثير من الناس، وإنما للخروج من الحول والطول والقوة؛ ليندفع عنه الغرور والعجب والتكبر والتعالي والتعاظم، فإن أزمّة الأمور بيد الله -عز وجل-، وليس المقصود بذلك دفع العين؛ لأن هذا الرجل لم يُقل له هذا من أجل أن يدفع العين، وليس الذي أصاب هذه الجنة كان بسبب العين، وإنما تعاظم واغتر بهذه الجنة فعوقب بهذه العقوبة، وأما دفع العين فقد علّمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف يقال، فقال: ((فليبرّك عليه))[٣]، يعني يدعو له بالبركة، ولهذا كثير من العامة يخطئون إذا رأوا شيئاً، أو رأوا أحداً تخوفوا منه العين قالوا له: قل: ما شاء الله، أو قل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أو هو يبادر ويقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ليس هذا هو المراد، وإنما يدعو له بالبركة، يقول: أسأل الله لك البركة، بارك الله لك، بارك عليك، بارك فيك، أسأل الله أن يبارك لك في هذا، بهذا تندفع العين، فلا يخلط بين هذا وهذا، فهذا المقام ليس المقصود به ما يتعلق بالعين، {مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا}، يعني: يعبر بعبارة لائقة مناسبة، قال: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ} "عسى" هنا على بابها من الترجي، و"عسى" من الله واجبة، وذلك إذا كانت صادرة من الله -عز وجل-، يعني هذا القرآن كلام الله، فحينما يقول الله -عز وجل-: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً} [سورة

---

٣ - رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا رأى من أخيه ما يعجبه، برقم (٢٠٥)، وصححه الألباني في تحقيق الكلم الطيب، برقم (٢٤٤).

الممتحنة:٧]، فهذه متحققة الوقوع، عسى من الله واجبة، {فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ} [سورة المائدة:٥٢]، أما التي ذُكرت من أقوال الناس فإنها على بابها من الترجي {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ}، وفي هذا فائدة وهو أنه يجوز الدعاء على الكافر بعينه، المجرم والجاحد للإيمان والتوحيد وما أشبه ذلك، وهذا الرجل يقول: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ} اغتر بماله، تقول: أسأل الله -عز وجل- أن يهلك ماله، أو يهلكه أو نحو ذلك، فدعا عليه بهذا الدعاء.

قال: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ}، يقول هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها**، الذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا التفسير سواء الأول أو الثاني هو تفسير على المعنى، {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ}، يعني: عذاباً، لكن لو أردت تفسيره على اللفظ، فيمكن أن يقال: إن الحسبان من الحساب، يعني أصل هذه اللفظة من الحساب، وهو مقدار قدره الله، مقدار يعني هذا يرجع إلى الحساب، مقدار قدره الله عليها، ووقع في حسابه سبحانه، {حُسْبَانًا} شيئاً محسوباً، ينزل عليها فتصبح بهذه المثابة {صَعِيدًا زَلَقًا} بلقعاً ليس فيها شيء، فهذا أصل هذه المادة أو تفسيرها على اللفظ، أما ما ذكر من أنه العذاب أو أنه المطر العظيم فهذا تفسير على المعنى، يعني هذا الشيء المقدر عذاب، سواء كان مطراً عظيماً أو غيره، والذي جعل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يذكر خصوص المطر العظيم {حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا}، أن هذا بالعادة هو آفة الزرع، فيهلكها ويقتلع أشجارها ويتلف ثمارها، {فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا} **أي: تراباً أملس من الانزلاق، تنزلق فيه الأقدام.**

ظاهر قوله: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا} أن هذا ليس في الآخرة، وإن كان اللفظ يحتمله، فالرجل يقول: {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا} فقال له: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ} يحتمل أن يكون في الآخرة، باعتبار أن ذاك ذكر الآخرة، {وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي} قال: {فَعَسَى رَبِّي}، ولكن المتبادر -والله تعالى أعلم- أن ذلك في الدنيا؛ لأنه قال بعده: {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ}، فهذا انتقصه واحتقره واستصغره؛ لأنه لا يملك مثل هذه الجنة، فقال ما قال، فهذا يقول: {فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا}، يبدل الحال من الجهتين، من جهتي ومن جهتك أنت، {وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ} هذا في الدنيا، وقد وقع هذا، ومن أهل العلم من السلف وغيرهم من يقول: هذا مثل ضربه الله -عز وجل- للتمثيل فقط، ولا يعني ذلك أنه وقعت هذه القضية، ولا يقصدون هذا في كل الأمثال في القرآن طبعاً، وإنما يقولون في مثل هذا المثال، ومنهم من يقول: إن الله ضربه مثلاً ليبين هذه الحقيقة بمثل رجلين حصل لهم كذا وكذا، وآخرون يقولون: بل هذا شيء واقع حقيقة، وهذا هو الأقرب، هذا هو الظاهر، حوار {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ} وتفاصيل، فمثل هذا يدل ظاهره على أن هذا قد وقع، وليس المقصود به مجرد التمثيل، ولولا أن بعض السلف ذكر هذا لم أذكره.

{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا} [سورة الكهف:٤٢-٤٤].

يقول تعالى: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ} بأمواله، أو بثماره على القول الآخر، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خَوَّفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته، التي اغتر بها وألهته عن الله -عز وجل-: {فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا} وقال قتادة: يُصفّق كفيه متأسفًا متلهفًا على الأموال التي أذهبها عليه {وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ} أي: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز {يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} اختلف القراء هاهنا، فمنهم من يقف على قوله: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ} أي: في ذلك الموطن الذي حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدئ بقوله: {الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} ومنهم من يقف على: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} ويبتدئ بقوله: {هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ}.

ثم اختلفوا في قراءة {الْوَلايَةُ} فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله، أي: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} [سورة غافر:٨٤]، وكقوله إخبارًا عن فرعون: {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس:٩٠-٩١].

ومنهم من كسر الواو من {الْوَلايَةُ} أي: هنالك الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع {الْحَقِّ} على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [سورة الفرقان:٢٦].

ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله -عز وجل-، كقوله: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ} الآية [سورة الأنعام:٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: {هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا} أي: جزاء {وَخَيْرٌ عُقْبًا} أي: الأعمال التي تكون لله -عز وجل-، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

قال: {وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا} يعني: قد سقطت الأشياء التي تحتاج إلى أن تكون معروشة مثل الأعناب مثلاً، تكون خاوية ساقطة على عروشها، ويُعبَّر بذلك بشيء من التوسع عن الخراب والهلاك والدمار، فتقول عن البلاد التي قد خربت، أو المحال التي قد اضمحلت: وجدتها خاوية على عروشها، ليس بها ما ينتفع به، ولا تصلح محلاً للإقامة أو السكنى، وإنما صارت خراباً يباباً، {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}.

ويقول: {هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا}، اختلاف القراء في موضع الوقف هو باعتبار المعنى، يعني في كثير من المواضع التي يحدد القراء فيها الوقف هو بناء على ما يلوح من المعنى، ولكن هذا قد يتأتى على معنى وقد تحتمل الآية معنى آخر، ولذلك تجدون بعض المصاحف تختلف في مواضع الوقف، وربما تجد الوقف في موضع قد لا يكون مناسباً، أو يحتمل على الأقل أن يكون في موضع آخر، كقوله تعالى مثلاً: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ} [سورة الأحزاب:٣٢]، موضع الوقف هنا في الطبعة المنتشرة عندنا، ثم قال: {إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، ويحتمل أن يكون {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، فالتفضيل باعتبار التقوى، بشرط التقوى ليس لمجرد القرابة من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال بعده: {فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، وهذا هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، وقل

مثل ذلك في قوله مثلاً: {الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [سورة البقرة:١-٢]، ويمكن أن يقال: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} ثم تقف بعد "فيه"، ثم تقول: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وهذا الذي عليه علامة الوقف في المصاحف التي بين أيدينا، وهذا أبلغ؛ لأنه بهذا الاعتبار يكون كل القرآن هدىً للمتقين، وعلى الموضع الثاني في الوقف {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، فالمعنى يتغير، {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ} هذا الكتاب الذي أنزله الله -عز وجل- واحتوى على ألوان الهدايات بلا مرية ولا ارتياب، ثم قال: {فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} يتضمن الهدى للمتقين، وإذا وقفت على الموضع الآخر {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}، وجعلت الوقف هنا فيكون نفيت عنه الريب، ثم تقول: {هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، كله هدى للمتقين، وهذا أبلغ، وقل مثل ذلك مثلاً في قوله: {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} إلى أن قال: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}، فالوقف هنا يصح، وهو الذي عليه علامة الوقف في المصاحف التي بين أيدينا، ويمكن أن تصل وتقول: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}، ويكون المعنى صحيحاً، وقل مثل ذلك في أول هذه السورة {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} [سورة الكهف:١]، وهنا كذلك قال: {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ} في ذلك المقام، لما نزل العذاب لم يستطع الخلاص لما نزل به، ويمكن أن يكون {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا} ثم قال: {هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} وهذا هو المتبادر، وهو الأصل باعتبار رءوس الآي، ثم قال: {هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} في ذلك المقام تكون الولاية لله الحق، عند ذلك يلجأ المجرم والمتمرد على الله -عز وجل- إلى الضراعة والإخبات، وأعظم هؤلاء فرعون قال: {آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ} [سورة يونس:٩٠].

والمعنى الثاني: {هنالك الولايةُ} على القراءة الأخرى الولاية السلطان، {لله الحقِّ} -سبحانه وتعالى-، أو {هنالك الولايةُ لله الحقُّ} يعني: السلطان الحق والثابت الذي لا يزول، ويضمحل دونه كل سلطان.

وقال: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا} [سورة الكهف:٤٥-٤٦].

يقول تعالى: {وَاضْرِبْ} **يا محمد للناس** {مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} **في زوالها وفنائها وانقضائها** {كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ} **أي: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسُن، وعلاه الزهر والنَّور والنضرة.**

الزهر معروف، والنَّور هو الزهر أيضاً، ظهر نَوره يعني زهره، وبعضهم يقول: يختص بالزهر الأبيض، وأما الأصفر فيقال له: زهر، هذا مما ينبت بسبب المطر، فتخرج هذه النباتات فتخرج أزهارها فيكون ذلك زينة تستهوي الناظرين، {كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ} يحتمل أن النبات اختلط بالماء حيث تغذى به، وصار ذلك نماءً له، ويحتمل {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ} أي: اختلط بسبب الماء نبات الأرض، تشابك وظهرت ألوان النباتات مشتبكة متداخلة، {بِهِ} أي: بسببه بسبب هذا المطر، فالمعنى الأول اختلط به نبات الأرض، اختلط النبات بالماء، يعني أنه داخله ونما به وتغذى عليه، والمعنى الثاني هو المشهور، اختلط به أي اختلط النبات، نفس النبات هو الذي اختلط بسبب المطر، تشعب النبات وتشابك، والله أعلم.

ثم بعد هذا كله {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} **يابسا** {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} **أي: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال.**

{فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} قال: يابساً وهكذا عبارة من عبر أن الشيء الهشيم هو الضعيف أو المتكسر، كل ذلك يرجع إلى شيء واحد، {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} أي: يابساً بمعنى أنه تهشم، تفتت هذا النبات بعدما كان في غاية الجمال والطراوة والخضرة، وأصبح متكسراً متفتتاً يطير في الرياح يمنة ويسرة، {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ}.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} أي: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيرًا ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا} الآية [سورة يونس:٢٤]، وقال في سورة الزمر: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} الآية [سورة الزمر:٢١]، وقال في سورة الحديد: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} الآية [سورة الحديد:٢٠]، وفي الحديث الصحيح: ((الدنيا حلوة خضرة))[٤].

وقوله: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} كقوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ} [سورة آل عمران:١٤]، وقال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [سورة التغابن:١٥] أي: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً} قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، عن ابن عباس: {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ}: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن: {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. رواه الإمام أحمد.

وروى الإمام أحمد عن مولى لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: ((بخ بخ، لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده))، وقال: ((بخ بخ، لخمس من لقي الله مستيقنًا بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة وبالنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب))[٥].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض.

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، برقم (٢٧٤٢).

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (١٥٦٦٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وصحح إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٢٠٤).

وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الكلام الطيب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير -رحمه الله.

قوله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ} هذه الأقاويل المنقولة عن السلف -رضي الله عنهم- هي أشبه ما تكون بالتفسير بالمثال، وهذا كله من اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد، والباقيات الصالحات تشمل ذلك جميعاً، فهي كل ما يبقى للإنسان من العمل الصالح من الأقوال والأفعال والمقاصد والنيات، فإنّ عرض الدنيا يزول ويضمحل، وإنما يبقى ما أريد به وجه الله -تبارك وتعالى-، فهذه خير عند الله -عز وجل-، {خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا} أجراً وجزاءً {وَخَيْرٌ أَمَلاً} أي خير أملاً لأهلها، وأفضل مما يؤمله أهل المال والبنين، خير لأهلها من الأمل، يعني أفضل مما يؤمله أهل الدنيا من دنياهم؛ لأن أهل الإيمان ينالون بهذه الأعمال في الآخرة أفضل مما كان يؤمله هؤلاء الأغنياء في الدنيا، ماذا يؤملون في الدنيا؟ يقولون: تأمين مستقبلهم والتوسع في المعايش، وملابسة وتعاطي اللذات ونحو ذلك مما يؤمله أربابها ، وأما هذه الأعمال الصالحة فإن أهل الإيمان يؤملون منها ما لا يؤمله غيرهم، يؤملون بالأعمال الطيبة الزاكية، فيؤملون الثواب العظيم من الله -عز وجل- والجنة التي عرضها السماوات والأرض، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٨)

من قوله تعالى"ويوم نسير الجبال" الآية ٤٧ إلى قوله تعالى"وما كنت متخذ المضلين عضدا" الآية٥١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، [سورة الكهف: (٤٧ - ٤٩)].

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا} [الطور:٩-١٠] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [النمل:٨٨]، وقال تعالى: {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}[القارعة:٥]، وقال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه:١٠٥-١٠٧] يذكر تعالى أنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض، {قَاعًا صَفْصَفًا} أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه، {وَلا أَمْتًا} أي: لا وادي ولا جَبَل؛ ولهذا قال تعالى: {وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} أي: بادية ظاهرة ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد وقتادة: {وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً} لا خمر فيها ولا غَيابة، قال قتادة: لا بناءَ ولا شجر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٧)] يحتمل أن يكون قوله: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ} متعلقاً بما قبله: {وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً* وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف: ٤٦-٤٧)] يعني: خير عند الله في الآخرة في اليوم الذي تُسير فيه الجبال، ولعله أحسن من هذا أن يقال بأن ذلك متعلق بمقدر، والتقدير: واذكر يوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة، وهنا أورد المصنف -رحمه الله- قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ} [سورة النمل: (٨٨)] يعني: في الآخرة إذا قامت القيامة، وليس المقصود بذلك في الدنيا كما يذكره بعض من يتكلم في الإعجاز ويستدل به على دوران الأرض، وأن

المقصود بذلك دوران الأرض وما عليها يدور ويتحرك بحركتها، فالجبال تدور بدوران الأرض، ليس هذا هو المراد، وإنما الآيات يفسر بعضها بعضاً، فذلك حينما تقوم القيامة.

وقوله: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} يقول: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} ترى الأرض بارزة أي: بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد، ولا بناء ولا عمارات ولا أشجار ولا جبال، يقول: بل الخلق كلهم ضاحون لربهم، أي: بادون ظاهرون، وكما في الحديث: ((**انظروا إلى عبادي شعثا غبرا ضاحين جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتي ولم يروا عذابي**))[1] بمعنى: أنه باد للشمس لا يستتر بشيء.

قال مجاهد وقتادة: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} [سورة الكهف: (٤٧)] لا خمر فيه ولا غيابة، فلا يوجد ماء يسترهم، فالخمر قيل له خمر؛ لأنه يخامر العقل أي: يسترها، والخمار خمار المرأة لأنه يسترها ويغطيها، فلا يوجد ما يسترهم أو يكنّهم.

والغيابة كل شيء سترك وغطاك من سحاب أو غير ذلك يقال له غيابة، ومنه غيابة الجب؛ لأن من كان بداخله وفي قعره، فإن العيون لا تراه يكون مستتراً بهذا البئر، وهكذا في الحديث: ((كأنهما غيايتان))[2]، فما يستر الإنسان من سحاب ونحو ذلك يقال له غياية وغيابة، قال قتادة: لا بناء ولا شجر.

وأما من قال في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً} أنها تُخرج ما فيها من الأجداث والكنوز فلا تدل عليه هذه الآية، وإنما تدل عليه آيات أخرى، كقوله: {وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} [سورة الانشقاق: (٤)]، وقوله: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} [سورة الزلزلة:(١-٢)] وإذا أخرجت أثقالها أخرجت ما فيها من الموتى، وأخرجت ما فيها من الكنوز.

وقوله: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} أي: وجمعناهم الأولين منهم والآخرين فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: {قُلْ إِنَّ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}[الواقعة:٤٩-٥٠]، وقال: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ}[هود:١٠٣]، وقوله: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا} يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[النبأ:٣٨]، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}[الفجر:٢٢].

وقوله: {لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} هذا تقريع للمنكرين للمعاد وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد؛ ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن.

{لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [سورة الكهف: (٤٨)] فسره ابن جرير -رحمه الله-: أي: أحياء بعد أن أماتكم الله -عز وجل- أحياكم ثانية.

---

[1] - رواه ابن حبان في صحيحه (١٦٤/٩)، برقم: (٣٨٥٣)، وابن خزيمة (٢٦٣/٤)، برقم: (٢٨٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦٩/٤)، برقم: (٢٠٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٧/٥)، برقم: (٣٧٧٤).

٢ - رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٥٥٣/١)، برقم: (٨٠٤).

وأشمل من هذا المعنى أن يقال: {لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} يعني: على هيئتكم حينما خلقكم الله -عز وجل- أول ما خلقكم حفاة عراة غرلاً لا خدم ولا حشم ولا مال ولا ولد، وإنما يحشر الإنسان بعيداً عن أهله وملكه، ويحشر منفرداً ويتخلى عن ذلك كله، وقد جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: قال: قام فينا النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب فقال: ((إنكم تحشرون حفاة عراة غرلا {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: (١٠٤)]))[٣]، وهذا القول ينتظم مع ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- إذا جاءوا حفاة عراة غرلاً فإنهم يأتون أحياء؛ لأن الله -عز وجل- يحييهم ثانية ويحشرهم على هذه الهيئة.

ما تناقص من أعضائهم وأجزائهم وأبعاضهم ونحو ذلك يرجع إليهم، وما وجد معهم من متاع وزيادة في هذه الحياة الدنيا فإن ذلك جميعاً يضمحل ويتلاشى، {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} كما خرج من بطن أمه لا مال ولا لباس ولا غير ذلك.

وقوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} [سورة الكهف(٤٩)] **أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، {فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ} أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، {وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا} أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا} أي: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر، {إِلا أَحْصَاهَا} أي: ضبطها وحفظها.**

قوله: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ} يحتمل أن يكون جنس الكتاب الذي تكتب فيه الأعمال، أعمال العباد والذنوب والطاعات وسائر الأعمال التي يعملونها، ويحتمل أن يكون المراد كتاب كل إنسان، فكل إنسان يعطى الكتاب الذي يخصه قد كتبت فيه أعماله الصغار والكبار، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ} [سورة المجادلة: (٦)]، فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله وآخذٌ كتابه من وراء ظهره، كل بحسب حاله وعمله، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [سورة الكهف(٤٩)] هذه قرينة تدل على أن المراد بالكتاب هنا كتاب الأعمال الذي يخص كل واحد؛ لأنه حينما يطلع عليه ويرى فيه هذه الأمور الدقاق الصغار والكبار، فكل إنسان يجد أعماله حاضرة حينما يطلع على كتابه الذي دونت فيه سائر الأعمال، حتى قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: إن الملَك يكتب كل شيء، حتى أكلتُ وشربتُ وذهبت وجئت، ثم بعد ذلك يُمحى ما لا يترتب عليه الثواب والعقاب، الله يقول: {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: (١٨)]، وهذا للعموم، وبعضهم يقول: هذا من العام المراد به الخصوص، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: (١٨)] يعني: مما يتصل به الثواب والعقاب.

وقوله: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا} أي: من خير وشر، كما قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا..}[آل عمران:٣٠] الآية، وقال تعالى: {يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}[القيامة:١٣]، وقال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[الطارق:٩] أي: تظهر المخبآت والضمائر.

---

[٣] - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر (٢٣٩١/٥)، برقم: (٦١٦١)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢١٩٤/٤)، برقم: (٢٨٦٠).

روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكل غادر لواء يومَ القيامة يعرف به))[٤]، أخرجاه في الصحيحين، وفي لفظ: ((يُرْفَع لكل غادر لواء يومَ القيامة عند استه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان))[٥].

وقوله: {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويُخلَّد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}[النساء:٤٠]، وقال: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}[الأنبياء:٤٧] إلى قوله: {حَاسِبِينَ} [الأنبياء:٤٧] والآيات في هذا كثيرة.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رَحْلي، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يحشُر الله -عز وجل- الناس يوم القيامة -أو قال: العبادَ- عُرَاةَ غُرْلاً بُهْماً، قلت: وما بُهْماً ؟ قال: ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقصه منه حتى اللطمة، قال: قلنا: كيف، وإنما نأتي الله -عز وجل- حفاة عُراة غُرْلاً بُهْماً ؟ قال: بالحسنات والسيئات))[٦].

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنا(٢٥٥٥/٦)، برقم:(٦٥٦٥)، ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر(١٣٦١/٣)، برقم: (١٧٣٧).

٥ - جاء عند البخاري، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم (٢٢٨٥/٥)، برقم: (٥٨٢٤) بلفظ: (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان)، وجاء عند مسلم، كتاب الجهاد والسير باب تحريم الغدر (١٣٥٩/٣)، برقم: (١٧٣٥)، بلفظ: (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء فقيل هذه غدرة فلان بن فلان). ولهما من حديث ابن عمر.

وجاء عند مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، (١٣٦١/٣)، برقم: (١٧٣٨) من حديث أبي سعيد -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة).

٦ - رواه الإمام أحمد (٤٣١/٢٥)، (١٦٠٤٢)، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

وعن شعبة عن العوام بن مُزَاحم عن أبي عثمان عن عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الجَمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة))[٧]، رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أُخر، وقد ذكرناها عند قوله: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا} [الأنبياء:٤٧]، وعند قوله تعالى: {إِلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[الأنعام:٣٨].

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}، يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه وهو الذي أنشأه وابتداه وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ} أي: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة.

{اسْجُدُوا لآدَمَ} أي: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر:٢٨ - ٢٩]، وقوله: {فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((خُلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم))[٨]، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى هاهنا على أنه {مِنَ الْجِنِّ} أي: إنه خُلِق من نار، كما قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[الأعراف:١٢].

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم -عليه السلام- أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [سورة الكهف: (٥٠)]

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "أي: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور".

يشير إلى أن العلة من عدم سجود إبليس لآدم أن أصله قد خانه، فأصله كان من الجن، فحمله أصله على عدم السجود، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، فهم مطيعون لله -عز وجل-، ووجه ذلك: أن الوصف الذي يذكر مع الحكم يدل على أنه هو العلة فيه، وهذا الذي يسمى بدلالة الإيماء والتنبيه، أن يقرن الحكم بوصف، لو لم يكن علة له لكان ذلك معيباً عند العقلاء أو عند السامعين، كما في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

٧ - مسند أحمد (٥٤٢/١)، برقم: (٥٢٠)، قال محققو المسند: حسن لغيره، وإسناده ضعيف.

٨ - رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة(٢٢٩٤/٤)، برقم: (٢٩٩٦).

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا [سورة الكهف: (٥٠)] فعلة السجود هو أمر الله -عز وجل- ومنه قولك سها فسجد، فعلة السجود السهو، وغفل فعصا فسبب المعصية الغفلة.

قوله: **{كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ}** [سورة الكهف: (٥٠)] فسق أي: فخرج، والفسق هو الخروج عن الطاعة وأصله مطلق الخروج في كلام العرب كما يقال: فسقت الفأرة من جحرها، يعني: خرجت للإفساد، والفاء هنا تفيد التعليل، فعلة خروجه عن أمر الله -عز وجل- أنه كان من الجن، وهذا توجيه لكلام ابن كثير -رحمه الله.

ولا شك أن الكبْر كان سببا لعدم سجوده، وقد أخبر الله عنه أنه قال: **{أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}** [سورة ص: (٧٦)]، وهذا لا ينافي ما ذُكر، فقد استكبر لأن أصله خانه فلو كان من الملائكة فهم **{لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** [سورة التحريم: (٦)]، أما غيرهم ففيهم الشهوات والأوصاف التي قد تحملهم على الذنوب والمعاصي.

قال: **{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ}** [سورة الكهف: (٥٠)]، قال ابن كثير -رحمه الله-: "**قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم -عليه السلام- أصل البشر**".

والآية مصرحة بهذا، ولربما كان الجمهور من العلماء يقولون: إن أصل إبليس من الملائكة، وإن اختلفوا في توجيه ذلك، ويستدلون على هذا بأن عامة الآيات التي وردت في ذلك الله -تبارك وتعالى- استثناه منهم: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}** [سورة الكهف: (٥٠)]، قالوا: والأصل في الاستثناء أنه متصل، ومعنى الاستثناء المتصل أن المستثنى من جنس المستثنى منه، بخلاف المنقطع فإن المستثنى لا يكون من جنس المستثنى منه، فالذين يقولون إنه من الملائكة يقولون: الله يقول: **{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}** فهو داخل معهم في الأمر بالسجود، فهو منهم، والله -عز وجل- استثناه منهم، والأصل في الاستثناء الاتصال.

وقد قال بعض أهل العلم إنه كان خازن الجنان، وقال بعضهم إنه من قبيلة من الملائكة يقال لها الجن، وأن ذلك هو المراد بقوله تعالى: **{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا}** [سورة الصافات: (١٥٨)] وهم قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وعلى كل حال كل هذا لا دليل عليه، وهو مبني على روايات إسرائيلية، فظاهر القرآن لا يصح العدول عنه إلى معانٍ خفية إلا بدليل يجب الرجوع إليه، ولا يوجد دليل واضح على أن إبليس من الملائكة، والله -عز وجل- أخبر عنه أنه قال: **{خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}** [سورة ص: (٧٦)]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من مارج من نار.

فهذا كله يدل على أن إبليس ليس من الملائكة وإنما هو من الجن، وهذا الذي تدل عليه ظواهر النصوص، والله تعالى أعلم، ودخول إبليس في الأمر **{اسْجُدُواْ لآدَمَ}** لأنه كان مع الملائكة ومن جملتهم، ومخالطا لهم، وليس المراد أنه كان منهم.

وقوله: {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} أي: فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فَسَقت الرُّطَبة: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد.

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي..} الآيــة، أي: بــدلاً عني؛ ولهذا قال: {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً}.

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في ســورة يــس: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [يس:٥٩] إلى قوله: {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس:٦٢].

يقول -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الــشَّيْطَانَ إِنَّــهُ لَكُــمْ عَــدُوٌّ مُّبِــينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [سورة يـــس (٦٠-٦١)].

وفي هذه السورة يقول الله -تبارك وتعالى-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} [سورة الكهــف: (٥٠) فــإذا قلنا بأن إبليس هو أبو الجن فذريته هم الشياطين.

في هذه الآية كأن الله -عز وجل- يقول بأن إبليس عادى ربه -تبارك وتعالى- ووقع ما وقع بسبب أنه امتنع من السجود لأبيكم آدم، فطرده الله -عز وجل- من رحمته، فكيف تتخذونه ولياً توالونه وتطيعونه وتكونــون من أتباعه وحزبه وتتركون أمر الله -تبارك وتعالى- الذي خلقكم ورزقكم، وكرمكم هذا التكريم؟ حيث أمــر إبليس أن يسجد لأبيكم آدم، والنعمة التي تكون على الآباء تلحق الأبناء كما هو معروف؛ ولهذا امتن الله -عز وجل- على بني إسرائيل كثيراً: {وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُــوءَ الْعَــذَابِ يُقَتِّلُــونَ أَبْنَــاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [سورة الأعراف: (١٤١)] والذين نجوا هم آباؤهم.

ويقول الله –تبارك وتعالى-: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [سورة البقرة: (٥٧)]، كل ذلك وقع لآبائهم، فالمنة التي تقع للآباء تلحق الأبناء، كما أن المذمة التي تقــع علــى الآباء تلحق الأبناء إذا كانوا على طريقتهم: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّــا كُنــتُمْ تَكْتُمُــونَ} [سورة البقرة: (٧٢)]، وقوله: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [سورة البقرة: (٥٥)]، فكــل ذلك وقع لآبائهم.

فمن أعجب شيء أن يطرد إبليس من رحمة الله، بسبب الامتناع من السجود لآدم ثم بعــد ذلــك تــأتي هــذه الذرية، ويعبدونه ويطيعونه ويتخذونه ولياً من دون الله -عز وجل- {بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُــسِهِمْ وَمَــا كُنــتُ مُتَّخِــذَ الْمُــضِلِّينَ عَــضُدًا} [ســورة الكهف:(٥١)].

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شــيئاً، ولا أشــهدتهم خلــق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلهــا، ومــدبرها ومقدرها وَحْدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير، كما قال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْــتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِــنْ ظَهِيرٍ وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ..}[سبا: ٢٢ - ٢٣] الآية؛ ولهذا قال: {وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، قال مالك: أعواناً.

قوله: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [سورة الكهف:(٥١)]، يقول الحافظ ابــن كثيــر –رحمــه الله-: "**هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً**". يعني: ما سبق في قولــه -تبــارك

وتعالى-: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [سورة الكهف: (٥٠)]، وكل من عبد غير الله -عز وجل-، أطاع غير الله وترك أمر الله -جل جلاله- وعبادته فهو داخل في هذا، فكل من عبد غير الله -عز وجل- سواء عبد حجراً أو صنماً أو نحو ذلك، فإن ذلك إنما هو عبادة للشيطان؛ ولهذا قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه: {لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [سورة مريم: (٤٤)]، وكان يعبد أحجاراً وأصناماً يصنعها، فهذه عبادة الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي أمر بذلك وزينه وحسنه في نفوسهم.

فالمقصود أن قوله -تبارك وتعالى-: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن الضمير يرجع إلى ما سبق.

وهذا القول هو أرجح هذه الأقوال، ودليل الرجحان هو القاعدة المعروفة، وهي: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، فلو فسرنا بهذا المعنى يكون معنى قوله: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ} أي: هؤلاء الذين ذكروا في قوله: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} لو كانوا شركاء لله -عز وجل- لكانوا شاهدين خلق السماوات والأرض، وشاركوا في ذلك، ولشاركوا في الخلق، ولكن ذلك لم يحصل منه شيء، حينما خلق الله السماوات والأرض لم يكن أحد من هؤلاء قد وُجد، فما شهدوا ذلك فضلاً عن المشاركة فيه، فكيف يتخذ هؤلاء شركاء مع الله -جل جلاله؟.

أما قول من قال بأن المراد {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أن ذلك يعود إلى المشركين المستكبرين الذين طلبوا طرد الضعفاء والفقراء من المؤمنين، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}، يقول: هؤلاء لم يكن لهم حضور لخلق السماوات والأرض ومشاركة في ذلك، فيكون لهم تدبير مع الله -عز وجل-، فكيف يطلبون هذا ويستنكفون من هؤلاء الضعفاء من أهل الإيمان ويطلبون إبعادهم؟!.

فهم جاهلون لم يشهدوا خلق الله للسماوات والأرض في الأزل فيطلعوا على المقادير -مقادير الخلق- فيعرفوا أن هؤلاء لا حظ لهم ولا نصيب، أو أنهم جاءوا لمصلحة أو لشيء يأكلونه ويطعمونه أو نحو ذلك، يقول: ما أدراهم عما قدره الله -عز وجل- لعباده وخلقه في الأزل، هذه المعاني بعيدة؛ والسبب أن هذا خلاف المتبادر.

والأمر الثاني: أنه يؤدي إلى تفريق مرجع الضمائر، إذا قلنا: إن هذه ترجع إلى المشركين وقبله قال: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ} يعني: إبليس، {وَذُرِّيَّتَهُ} إبليس، {وَهُمْ} أي: إبليس وذريته، {لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}.

قوله: {وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} [سورة الكهف: (٥١)] الآية خصت المضلين -يعني أعواناً-، والله -عز وجل- لم يتخذ أعواناً لا من المضلين ولا من الصالحين أو المصلحين، فالله -تبارك وتعالى- له الغنى المطلق عن خلقه أجمعين، ولكن يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: إنه خص المضلين هنا مع أنه لم يتخذ أعواناً من أحد من الخلائق باعتبار أن ذلك فيه زيادة تحقير وامتهان لهؤلاء، أو لزيادة التوبيخ، لا سيما إذا اعتبرنا تعلقه بما قبله، {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} ما شهدوا خلق السماوات والأرض، وما حضروا ذلك، وما شاركوا فيه.

العَضُد: فيه لغات متعددة، وهذه اللغة المشهورة لغة قريش عَضُد بفتح العين وضم الضاد وعليها هذه القراءة، والآية فيها قراءات أخرى، وبعضهم يقول: عُضُد.

والعَضُد يستعمل بمعنى: العون؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} [سورة القصص: (٣٥)]، بمعنى: نقويك ونعينك.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (٩)

قوله تعالى"وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ" الآية ٥٢ إلى قوله تعالى"واتخذوا آيَاتِي وما أنذروا هزوا" الآية ٥٦

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} [سورة الكهف:٥٢-٥٣].

يقول تعالى مخبرًا عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد تقريعًا لهم وتوبيخًا: {نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ} أي: في دار الدنيا، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [سورة الأنعام:٩٤].

وقوله: {فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} كما قال: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} الآية، وقال:{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ} الآيتين، وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم:٨١-٨٢].

وقوله: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقتادة وغير واحد: مَهْلكًا.

والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جعل الضمير في قوله: {بَيْنَهُمْ} عائدًا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [سورة الروم:١٤]، وقال {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ} [سورة الروم:٤٣]، وقال تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} [سورة يس:٥٩]، وقال تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} إلى قوله: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [سورة يونس:٢٨-٣٠].

وقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: إنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، ورأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز.

وقوله: {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولابد لهم منها.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} سماهم هنا شركاء كما قال: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء}، وهم ليسوا بشركاء ولا شفعاء، ولكن هذا يرِد استعماله في القرآن مراعًى فيه حال المخاطَب، وإن كان المخاطِب لا يقر به، ولا يعترف بصحته، وهذا كثير وهو أنواع، وهذا أحد هذه الأنواع.

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا}، هذا الموضع يحتاج فيه إلى معرفة ثلاثة أمور:

الأمر الأول: معنى البين.

الأمر الثاني: مرجع الضمير {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ}.

الأمر الثالث: المراد بالمَوْبِق.

وكل ذلك مما لم يتفق عليه المفسرون، فقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} قد يفسر على ظاهره المتبادر، إذ قيل بأن الموبق هو العداوة، وجعلنا بينهم العداوة، كما قال الله -عز وجل-: {وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء} [سورة المائدة:٦٤]، والعداوة تكون بين الناس، وتكون بين العابدين والمعبودين من دون الله -عز وجل- في الآخرة، فإذا قيل: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا} إن الموبق هو العداوة فهذا يكون له وجه في تفسير البين، ولكن تفسير الموبق بالعداوة ليس هو الأرجح والأقرب في هذا الموضع، وإن قال به بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم-، ويحتمل أن يكون المراد بالبين {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} هو الوصل، {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ} [سورة الأنفال:١] أي ذات الوصل، وجعلنا بينهم أي: الصلة والوصل الذي بينهم هلاكاً، بمعنى أن الروابط والعلائق التي كانت بينهم صارت عذاباً وشؤماً عليهم، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول: وجعلنا فعلهم ذلك مهلكاً.

وعلى هذا المعنى يكون تواصلهم الذي كان في الدنيا سبباً لهلاكهم، ويكون مهلكاً لهم يوم القيامة، بعضهم يقول: جعلنا الهلاك بينهم، {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا}؛ لأن كلاً منهم معين للآخر على إشراكه وباطله ومعصيته وضلاله وانحرافه.

والضمير في قوله: {بَيْنَهُمْ} يحتمل أن يكون بين العابدين والمعبودين، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

ويقول: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ}، تقطع بينكم يعني الصلة الوشيجة التي كانت بينهم، {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} [سورة البقرة:١٦٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على هذا المعنى، وهذا القول هو الأقرب، والسياق يدل عليه؛ لأن الله -عز وجل- يقول: {وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا}، بين العابدين والمعبودين، فالضمير يرجع إلى ما ذكر قبله، ويحتمل أن يكون {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: بين الكافرين في الآخرة جعلنا بينهم موبقاً.

وذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا بعض ما يشهد له أيضاً، {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [سورة الروم:٤٣]، {يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ}[سورة الروم:٤٣]، فيتفرق هؤلاء الكفار.

والاحتمال الثالث: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ} أي: بين المؤمنين والكفار، {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا}، يفصل بينهم، وهذه ثلاثة معانٍ أرجحها أن ذلك يكون بين العابدين والمعبودين، وهذا الذي يدل عليه ظاهر السياق، والله تعالى أعلم.

والمَوبِق المشهور من أقوال السلف أنه: الهلاك، جعل بينهم هلاكاً، فإذا قلت بين العابدين والمعبودين أي: جعل بينهم هلاكاً، سواء قلت بأنها الصلة التي كانت بينهم، أو قلت بأن المراد جعل بينهم أي بين هؤلاء وهؤلاء هلاكاً، وبعضهم يقول: أي موعداً، وابن الأعرابي -رحمه الله- يقول: كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق، فإذا قلت مثلاً: هذا بين العابدين والمعبودين، بينهم موبق أي لا يستطيعون الوصول إليهم، ويدعونهم ولا يستجيبون لهم، ولا ينفعونهم ولا يغنون عنهم من الله شيئاً، وبينهم هلاكاً، بينهم عذاباً يحيط بهم، وكما قال الله -عز وجل-: {لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} [سورة الزمر:١٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}، هنا قال: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ} كما أخبر أيضاً أن النار تراهم فقال: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [سورة الفرقان:١٢]، {فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا} الظن في كلام العرب بمعنى اليقين وهو المراد هنا، ظنوا أنهم مواقعوها أي: أيقنوا وعلموا؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أخبر عن حالهم في الآخرة بأنهم يكونون في غاية الإدراك {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢]، والمعرفة، {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ}، {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}، يعني: ما أسمعَهم وما أبصرَهم!، فتذهب عنهم تلك الغشاوة، والحجب التي تحول بينهم وبين السماع والإبصار في الدنيا، فيعاينون الحقائق ويتيقنون المصير، {أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [سورة السجدة:١٢]، فالظن هنا بمعنى اليقين، {فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}، علموا أنهم داخلون فيها لا محالة، ويأتي الظن أيضاً في كلام العرب بمعنى طرف الرجحان؛ لأن القسمة ثلاثية: إذا أبعدنا اليقين فيكون الطرف الراجح والمرجوح والمستوي، فالراجح يقال له: ظن والمرجوح يقال له: وهم، والمستوي الذي استوى فيه الطرفان يقال له: شك، فكثيراً ما يطلقون، وهذا الذي يطلقه الأصوليون، والفقهاء تبعاً لهم، يطلقون الظن على طرف الرجحان، والراجح يقال له: ظن، يقولون: حكم العمل بالظن، يعني الظن الراجح، وإذا قالوا: إن الحكم الفلاني حكم ظني يقصدون أنه لا يفيد القطع لكنه هو الطرف الراجح وليس بوهم، بمعنى أنك إذا أخذت الطرف المرجوح وتركت الطرف الراجح تكون متبعاً للوهم، وهو ما يسمى عند الأصوليين أيضاً في الدلالة إذا لجأ إليه يقال له: التأويل، وهو المعنى الضئيل الذي يحتمله اللفظ احتمالاً ضعيفاً، وهذا اللجوء يقال له: التأويل، وذاك يقال له: المؤول، يعني الطرف الضعيف.

{فظنوا أنهم مواقعوها} يعني: أيقنوا وعلموا أنهم مواقعوها، {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا} أي: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا} [سورة الكهف:٥٤].

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- طرقه وفاطمةَ بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة، فقال: ((ألا تصليان؟))، فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئًا، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}))[1] أخرجاه في الصحيحين.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ} يعني: بينا وأوضحنا، ونوعنا وكررنا، {لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} المثل يمكن أن يقال: إنه يقصد به المعنى، المثل يطلق بإطلاقات متعددة، لكن يمكن أن يقال: {صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} أي: من كل معنىً هو كالمثل في غرابته وحسنه، {صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} ومرجع الأمثال أو المثل يكون بالبيان بالنظير، هو الذي يعبرون عنه أحياناً بأنه إبراز المعنى بصورة حسية، كما يقولون، ولكن المثل هنا لا يراد به الأمثال التي تكون عند الأدباء والبيانيين وإنما المقصود أن الله -تبارك وتعالى- جلى لهم المعاني وأوضحها بألوان من التصريف الواضح، وكررها ونوعها بحيث لا تترك في الحق لبساً.

وقوله: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}، أكثر شيء مما يوصل بالجدل، فالإنسان أكثره جدلاً، وكثير من أهل العلم يقولون: هذا من العام المراد به الخصوص، وأن المراد بالإنسان الإنسان الكافر، قالوا: يدل على ذلك أن الله -عز وجل- ذكره بعد قوله: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، فالكافر هو الذي يجادل بهذه القضايا، ويكابر ويردها، يجادل في الإيمان والتوحيد، ويجادل في البعث والآخرة، ويجادل في الوحي والنبوة.

ثم من الآيات التي تدل على هذا قوله -تبارك وتعالى-: {وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}، ونحو ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى أن هؤلاء الكفار يجادلون مجادلة يقصدون بها إبطال الحق وتوهينه ونصرة الباطل، وإن كان هذا هو المراد وأن الآية في جدال الكافرين، {وَكَانَ الإِنْسَانُ} أي: الكافر فإن هذا لا يمنع من استعمال العموم الذي في الآية، {وَكَانَ الإِنْسَانُ} بحيث إن ذلك يصدق على الإنسان من حيث هو في كثرة مجادلاته، سواء كان يجادل في الإيمان أو يجادل في غيره، ويدل على ذلك حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- المتقدم، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- رجع وهو يلطخ فخذه ويقول: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}، فإذا قيل: إن سياق الآية في الكافر فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قد استعملها في الأعم مما يدل عليه ظاهر اللفظ، فوجَّه ذلك فيما وقع إلى علي -رضي الله تعالى عنه-، وذلك في جوابه ورده أن هذا من الجدال، {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}.

١- رواه البخاري، كتاب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، برقم (١٠٧٥)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح، برقم (٧٧٥).

وظاهر اللفظ العموم فيمكن أن يؤخذ هذا العموم ويجرى هذا اللفظ على كل ما يصدق عليه من جهة عمومه، كما سبق في أمثلة متنوعة، وكما في قوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء:١٠٤]، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عندها حشر الناس حفاة عراة غرلاً، مع أن السياق في إعادة الخلق، في الاحتجاج بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، على البعث، وهي طريقة معروفة ومشهورة في القرآن، فيؤخذ من ظاهر اللفظ، كما في قوله تعالى: {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [سورة النحل:٤٣]، فهي في الرجوع إلى أهل الكتاب الذين يعرفون الكتب والنبوات فاسألوهم عن هذا إن كنتم لا تعلمون به، وتعرفون أن ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- حق، ولكن يؤخذ من ظاهر اللفظ معنىً أعم من هذا وهو الرجوع إلى أهل الاختصاص وسؤالهم والأخذ عنهم في أي فن من الفنون، {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}، الرجوع إلى العلماء في الفتيا، والرجوع إلى صاحب الصنعة في صنعته، ونحو ذلك.

والجدل في قوله: {وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا}، المراد به الذم، وهذا هو الغالب في القرآن؛ لما يحصل فيه من حضور النفس وطلب الانتصار، وما يقع بسبب ذلك من أمور لا تخفى، وغالب ما ورد في القرآن من ذكر الجدل فإنما هو على سبيل الذم، إلا في مواضع قليلة يسيرة {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل:١٢٥]، فهو مقيد بهذا؛ لأن الجدال في الغالب لا يسلم، وأصل معناه يدل على هذا في كلام العرب، حيث قيل: إنه مأخوذ من الجدالة وهي الأرض الصلبة.

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} [سورة الكهف:٥٥-٥٦].

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الشعراء:١٨٧]، وآخرون قالوا: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة العنكبوت:٢٩]، وقالت قريش: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال:٣٢]، {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الحجر:٦-٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا} أي: يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} أي: قبل العذاب مبشرين مَن صدقهم وآمن بهم، ومنذرين مَن كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل {لِيُدْحِضُوا بِهِ} أي: ليضعفوا به {الْحَقَّ} الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا} أي: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب {هُزُوًا} أي: سخروا منهم في ذلك، وهو أشد التكذيب.

يقول: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}، وفي الموضع الآخر {إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، فهذا في المانع العادي أنهم استغربوا كيف يكون الرسول بشرياً، ولا يكون ملَكاً؟ فهنا في هذه الآية {إلا أن قالوا} هذا في المانع الحقيقي، {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}، يقول: {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} يعني: بالعذاب المستأصل، كما ذكر الله -تبارك وتعالى- بعده {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} ثمود وعاد وقوم لوط وأصحاب الأيكة كل هؤلاء دمرهم الله -عز وجل- واستأصلهم عن آخرهم، {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} أي: عادته -تبارك وتعالى- في المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام-، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا}، هنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة، وهذه الآية فيها قراءتان متواترتان، القراءة الأولى هذه: {قُبُلاً}، وبها قرأ الكوفيون الثلاثة: عاصم، وحمزة، والكسائي، وقرأ الأربعة الباقون من السبعة بكسر القاف، يعني {قِبَلاً}، ويمكن أن تفسر -والله تعالى أعلم- قراءة قِبَلاً أي: معاينة ومواجهة ومقابلة، وتفسر القراءة الأخرى {قُبُلاً} أي: متفرقاً، يتبع أو يتلو بعضه بعضاً، ويكون المعنى {إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ} بالعذاب المستأصل، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا} أي: متتابعاً ليس باستئصال، متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، هذا على قراءة {قُبُلاً}، وقراءة {قِبَلاً} هي التي يمكن أن يربط بها، أو يحمل عليها التفسير الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، أي معاينة ومواجهة، والله تعالى أعلم.

والقراءتان إن كان لكل واحدة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين.

يقول: {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ} [سورة غافر:٥] قال: ليضعفوا به الحق، يدحضوه أي ليبطلوه، ليضعفوه، وأصل الدحض يقال للشيء الزلق، فالذي لا تثبت عليه الأقدام والحوافر وما إلى ذلك يقال له: زلق، تنزلق عليه، ليدحضوا أي ليبطلوا، {وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}، وهذا في الكلام على الجدل أن غالبه يكون بهذه المثابة، ولهذا جاء على سبيل الذم في أكثر المواضع.

والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٠)

من قوله تعالى"ومن أظلم ممن ذكر بأيت ربه فأعرض عنها" الآية ٥٧ إلى قوله تعالى"لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا" الآية ٦٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [سورة الكهف(٥٧-٥٩)].

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها؟! أي: تناساها وأعرض عنها، ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالاً {وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [سورة الكهف(٥٧)] أي: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} [سورة الكهف(٥٧)] أي: قلوب هؤلاء {أَكِنَّةً} أي: أغطية وغشاوة {أَن يَفْقَهُوهُ} أي: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [سورة الكهف(٥٧)] أي: صمماً معنوياً عن الرشاد {وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف(٥٧)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** [سورة الكهف (٥٧)] هذا الاستفهام مضمن معنى النفي: **{وَمَنْ أَظْلَمُ}** أي: لا أحد أظلم **{مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** [سورة الكهف (٥٧)].

وهنا سؤال ذكرته في عدد من المناسبات وهو أن هذا النفي المقرون بصيغة التفضيل: لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، قد يستشكل طالب العلم ذلك مع ما ورد من نظائره في قضايا أخرى؛ كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [سورة البقرة: (١١٤)] **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}** [سورة الأنعام (٢١)] فأفعل التفضيل كما هو معلوم في الأصل يدل على أن اثنين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر فيها، فالسؤال الذي يرد في هذا هو أنه كيف قال: لا أحد أظلم ممن فعل كذا وكذا في موضع، وفي موضع آخر ذكر قضية أخرى وهكذا ؟ والجواب من وجهين:

الأول: أن المعنى: لا أحد أظلم من المعرضين، فيكون مختصا بالصلة التي ذكرت معه، وفي المانعين: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي المفترين: لا أحد أظلم ممن افترى الله على الله كذباً، هذا الجواب الأول.

الثاني: أن أفعل التفضيل تمنع من الزيادة ولا تمنع من التساوي وهذه قاعدة أفعل التفضيل، فتمنع من أن يزيد أحد على هذا في هذه الصفة، لكنها لا تمنع التساوي، يمكن أن يوجد من يساويه، لكن كلهم قد بلغ في الظلم غايته.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [الكهف: ٥٧]، أضاف العمل إلى اليدين مع أن عمل الإنسان قد يصدر من عينه ومن فمه أو غير ذلك من جوارحه، وقد يكون من قلبه وهو الإشراك بالله -عز وجل-، والرياء.

والسبب -والله أعلم- أن أكثر ما يلابسه الإنسان إنما هو بيديه؛ ولهذا يقال للإنسان: يداك أَوْكَتا وفُوك نَفَخ، ويقال: هذا ما جنت يداك، وقد يكون وقع له ذلك بغير فعل اليدين، بغير جناية اليدين، مثل الإنسان الذي قد يفرط في أمر من الأمور، ثم بعد ذلك لا يحصل مطلوبه، فيقال: هذا ما جنت يداك، فالعرب تضيف ذلك إلى اليدين؛ لأن غالب ما يلابسه الإنسان إنما يكون باقتراف اليدين في الغالب.

كما يعبر في مال اليتيم بالأكل، مع أن إحراق مال اليتيم، وإغراق مال اليتيم نفس الحكم، لكن لما كان غالب مقصود الناس هو الأكل، عبر بالأكل.

وهكذا في أكل الربا: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا} [سورة البقرة (٢٧٥)] وقد لا يأكله الإنسان، لكن لما كان غالب مقصود الناس من تحصيل الربا والأموال عموماً هو الأكل عبر به، والله أعلم.

وقوله: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [سورة الكهف (٥٧)] الأكنّة هي الأغطية، والوقْر هو الثقل في السمع، والوِقْر بالكسر هو الثقل في الأحمال، تقول: هذه الدابة عليها وِقْر من الطعام، أي: حمل من الطعام، والوَقْر: الثقل الذي يكون في السمع، يعني هنا الصمم: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [سورة الكهف (٥٧)].

{وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا} [سورة الكهف (٥٧)] هذه الأكنة التي جعلها الله على القلوب، وعدم الاهتداء أبداً ليس ذلك ظلماً من الله -عز وجل- لهم، وإنما كان نتيجة لجنايتهم، فالله -عز وجل- يخبر عنهم قبلها: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [سورة الكهف(٥٧)] فأعقبهم ذلك أن طبع الله على قلوبهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ} [سورة التوبة (٧٧)] فالباء سببية، والله -عز وجل- لا يظلم الناس شيئاً، فكان هذا جزاء وفاقاً، فالله عالم بهم وبعقولهم وإعراضهم عن الحق، ومجافاتهم له، فجازاهم بالطبع على القلوب، والختم على هذه القلوب، وأقفل أسماعهم وأبصارهم عن الاهتداء، أو معرفة الحق وسماعه سماع الانتفاع.

وقوله: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ} [سورة الكهف (٥٨)] أي: ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة {لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ} [سورة الكهف (٥٨)] كما قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا

تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} [فاطر: ٤٥] وقال: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦] والآيات في هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: {بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا} [سورة الكهف٥٨)] أي: ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل.

وقوله: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [سورة الكهف (٥٩)] أي: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [سورة الكهف (٥٩)] أي: جعلناه إلى مدة معلومة، ووقت معلوم معين، لا يزيد ولا ينقص، أي: وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذّبتم أشرف رسول، وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

قوله: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا} [سورة الكهف (٥٩)] هذه فيها ثلاث قراءات متواترة، قد ترجع إلى معنى واحد، ومن أهل العلم من يفسر قوله: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم} [سورة الكهف(٥٩)]، أي: لوقت هلاكهم، ومنهم من يفسر ذلك بالمصدر: {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم} [سورة الكهف(٥٩)] أي: جعلنا لهلاكهم موعداً، أي: أن هلاكهم في وقت محدد في علم الله -عز وجل- لا يتقدم ولا يتأخر، وهذان المعنيان بينهما ارتباط لا يخفى، إذا قلنا: جعلنا لهلاكهم موعداً، أو جعلنا لوقت هلاكهم، فإن الهلاك يقع في زمان محدد كما أنه يقع في مكان، فإذا ذكر الهلاك فإن هذا يتضمن ذكر الزمان، فإذا قيل: لهلاكهم وقت محدد، أو لزمان هلاكهم موعد محدد، فكأن ذلك يرجع إلى معنى متلازم، ولهذا مثل هذه المعاني التي تحتملها الآية ويكون بين هذه المعاني ملازمة لا يحتاج مثله إلى ترجيح، والله أعلم.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف (٦٠-٦٥)].

سبب قول موسى لفتاه -وهو يُوشع بن نُون- هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى -عليه السلام-، فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك: {لَا أَبْرَحُ} [سورة الكهف (٦٠)] أي: لا أزال سائراً {حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [سورة الكهف (٦٠)] أي: هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين.

وقوله: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [سورة الكهف (٦٠)] أي: ولو أني أسير حقباً من الزمان.

قال ابن جرير -رحمه الله-: ذكّر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب في لغة قيس: سنة.

ثم روى عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قوله: {أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا} [سورة الكهف (٦٠)] قال: دهراً، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك.

يقول: سبب قول موسى لفتاه -وهو يوشع بن نون- هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً.. إلى آخره، والحديث يدل على أنه ذكر له هذا بسبب ما وقع من موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما قام في بني إسرائيل، وسأل: من أعلم؟ ثم قال: أنا أعلم، فالله -تبارك وتعالى- أخبره أن عبداً من عباده قد علمه من العلم ما ليس عند موسى -عليه الصلاة والسلام-، فهذا هو السبب، فذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- يطلبه، وهذا يدل على أن الإنسان مهما علا قدره لا يتوقف من طلب العلم، والرحلة إليه، والسؤال عنه، ولا يستنكف، فإن هذا هو الطريق الذي تحصل به معالي الأمور والكمالات، وموسى وهو نبي الله الكليم يذهب هذه المسافة ويتعب من أجل أن يتزود من العلم، ويحصل منه ما ليس عنده.

وقوله: {حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [سورة الكهف (٦٠)] قال: أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، والله -عز وجل- لم يحدد هذا المكان أين هو، ولو كان فيه فائدة لذكره، والمفسرون يذكرون أشياء كثيرة في غاية التناقض، وكل ذلك مما تُلقي عن بني إسرائيل.

فبعضهم يقول: المقصود بالبحرين بحر فارس، الذي هو معروف بالخليج العربي، وبحر الروم الذي هو البحر الأبيض المتوسط في هذه المنطقة، وبعضهم يقول: هو بحر الأردن، ويقصدون به الناحية التي تلي الأردن من البحر، وبحر الأردن مع بحر القلزم، وهو رأس البحر الأحمر، وبعضهم يقول -وإن تفاوتت عباراتهم-: البحر الذي يكون غرباً يعني: عند مضيق جبل طارق، يقولون: عند طنجة، أو يقولون: بأفريقيا يقصدون هناك، أو المغرب، والمقصود ملتقى البحر هناك، وبعضهم يذهب من ناحية أخرى تماماً عند أرمينية وأذربيجان، والعلم عند الله -عز وجل.

وقوله: {حُقُبًا} [سورة الكهف (٦٠)] هذه الأقوال: أنها سنة، أو ثمانون سنة، أو سبعون سنة متباعدة جداً، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه كما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: دهراً؛ ولهذا يقول النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أنه زمان من الدهر مبهم غير محدد، أمضي مدة من الدهر حتى أدرك ذلك، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا} [سورة الكهف (٦١)] وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدتَ الحوت فهو ثَمّه، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب، وكان في مِكتل مع يوشع -عليه السلام.

المِكتل هو الزنبيل، والذي لا يعرف الزنبيل فهو المِكتل، تعرفون الذي يوضع فيه التمر ويخصف من الجريد، هذا يقال له: مِكتل، وكان الناس إلى عهد قريب يضعون فيه الطعام.

فاضطرب وكان في مِكتل مع يوشع -عليه السلام-، وطَفَر من المِكتل إلى البحر، فاستيقظ يُوشع -عليه السلام- وسقط الحوت في البحر، فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال تعالى: {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا} [سورة الكهف (٦١)] أي: مثل السَرَب في الأرض.

قال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: صار أثره كأنه حَجَر.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهم- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين ذكر حديث ذلك: ((ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت مكان الحوت الذي فيه، فانجاب كالكُوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه، فقال: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} [سورة الكهف (٦٤)][(١)].

قوله: {فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا} [سورة الكهف (٦١)] يعني: أن المكان الذي دخل فيه الحوت بقي كأنه جحر، أو نفق، أو سرب لم ينطبق عليه الماء، وإنما بقي ذلك كأنه في اليابسة، بل صار الماء منكفئاً عنه، وبقي مكان دخول الحوت كالجحر في الماء، يراه الإنسان ويشاهده دون أن ينزل عليه الماء ويرجع إلى هيئته التي كان عليها، فهو جحر في الماء والماء يكون دونه، هذا معنى سرباً، السرب هو النفق أو الجحر، وهذا لا يكون عادة في الماء، ولكنها آية جعلها الله -عز وجل- لموسى -عليه الصلاة والسلام- من أجل أن يعرف ويرى هذا المكان الذي دخل منه الحوت.

وقوله: {فَلَمَّا جَاوَزَا} [سورة الكهف(٦٢)] أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما، وإن كان يُوشَع هو الذي نسيه، كقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} [سورة الرحمن (٢٢)]، وإنما يخرج من المالح في أحد القولين.

فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة قال موسى -عليه السلام- لفتاه: {آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا} [سورة الكهف (٦٢)] أي: الذي جاوزا فيه المكان {نَصَبًا} أي: تعباً، قال: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] ولهذا قال: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] أي: طريقه {فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} [سورة الكهف (٦٤)] أي: هذا هو الذي نطلب {فَارْتَدَّا} [سورة الكهف (٦٤)] أي: رجعا {عَلَى آثَارِهِمَا} [سورة الكهف (٦٤)] أي: طريقهما، {قَصَصًا} أي: يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما.

{فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] وهذا هو الخضر -عليه السلام-، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

قوله: {فَلَمَّا جَاوَزَا} [سورة الكهف(٦٢)] أي: المكان الذي نُسي الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه وهذا كثير تجده في القرآن وفي كلام العرب، وهذا يشبه -وإن لم يكن منه- العام المراد به الخصوص، وإن كان هنا لا عموم، لكن وجه الشبه أنه أضاف شيئاً إلى معنى، أو إلى أكثر مما حصل منه، أو ممن صدر منه، والمقصود أن ذلك وقع من بعضه، وعكسه أيضاً يوجد.

يقول: {فَلَمَّا جَاوَزَا} [سورة الكهف(٦٢)] أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، {قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا} [سورة الكهف (٦٢)] أي: الذي جاوزنا فيه المكان {نَصَبًا} بمعنى: أن النصب حصل لهما بعد مجاوزة السفر الذي أنشأه بعد هذه الاستراحة التي ذهب فيها الحوت.

---

١ - أخرجه الطبري (٢٧٣/١٥) من طريق محمد بن إسحاق عن ابن شهاب الزهري.

قوله: {نَصَبًا} أي: تعباً، وابن القيم -رحمه الله- ذكر هنا لطيفة من اللطائف: قال: هذا السفر إلى المخلوق لقي فيه النصب، وأما السفر إلى الله -عز وجل- فلا نصب فيه، وذكر أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما واعده ربه، وذهب إلى الميقات أنه صام أربعين يوماً، ولم يذكر هذا النصب حينما ذهب إلى الطور.

قال: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] أضاف إلى الشيطان لأن الشيطان هو سبب النسيان، كما قال الله -عز وجل-: {وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام (٦٨)].

وقال: ولهذا قال: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] أي: طريقه {فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [سورة الكهف (٦٣)] هذا يحتمل أن يكون من الموصول لفظاً المفصول معنىً، وقد مضى نظائره في القرآن، كقوله في سورة يوسف -عليه السلام- عن قيل امرأة العزيز: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف (٥٢)] يحتمل أن يكون من كلام امرأة العزيز، ويحتمل أن الله قال: {قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ} [سورة يوسف (٥١)] إلى أن قال: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [سورة يوسف (٥٢)] يحتمل أن يكون من جملة كلامها، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام يوسف -عليه الصلاة والسلام.

وهكذا قبله أيضاً في سورة الأنعام في ذكر الله -تبارك وتعالى- المناظرة بين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وبين عبدة الكواكب، قال الله -عز وجل- لما خوفوه من آلهتهم أن يضروه، أو أن يقتلوه أو يمرضوه: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [سورة الأنعام(٨١)]، ثم قال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [سورة الأنعام(٨٢)] يحتمل أن يكون هذا من كلام الله فصل بين الفريقين، بيّن أن الأمن لأهل الإيمان، ويحتمل أن يكون من جملة كلام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فيما خاطب به قومه، وهذا كثير.

فقوله: {قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف (٦٣)] يمكن أن يكون هذا كلام يوشع انتهى إلى هذا الحد.

ثم قال الله -عز وجل-: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [سورة الكهف (٦٣)] ويحتمل أن يكون ذلك جميعاً من كلام يوشع، فهو يقول: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا} [(٦٣) سورة الكهف] وذلك بهذه الطريقة كيف أحياه الله -عز وجل- وخرج من المكتل، وكيف دخل في البحر فبقي موضع دخول الحوت كالنفق أو السرب في البحر لم يتحول ولم يتغير؟، والله أعلم.

وقوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] يقول: وهذا هو الخضر -عليه السلام-، سمي بالخضر لما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي

تهتز من خلفه خضراء))[٢] هذا هو السبب، فالخضر بهذا الاعتبار لقب، وقد جاءت تسميته باسمه غير الخضر في بعض الأخبار المتلقاة عن بني إسرائيل، والله تعالى أعلم.

قوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف (٦٥)] هذا الموضع بالإضافة إلى ما ذكره في آخر ما قال لموسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف (٨٢)] هذه المواضع الثلاثة، يعني: الجملة الأولى في قوله: {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا} [سورة الكهف (٦٥)]، والجملة الثانية: {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف (٦٥)] والموضع الثالث: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] يستدل بها من يقول بأن الخضر نبي من الأنبياء، وهذا قول مشهور، قال به طائفة من أهل العلم سلفاً وخلفاً، قالوا: إن الرحمة قد وردت في القرآن مراداً بها النبوة: {إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة القصص(٨٦)] ولما قالوا: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [سورة الزخرف(٣٢)] يعني النبوة، فقالوا: الرحمة جاءت مراداً بها النبوة، والقرآن أحسن ما يفسر به هو القرآن.

{وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] قالوا: هذا هو الوحي، وإنما يكون الوحي للأنبياء، وقوله: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] يدل على أنه يوحى إليه.

وعلى كل حال القول الآخر: أنه ليس بنبي، وإنما هو رجل صالح، هذان قولان مشهوران، وأما قول من قال بأنه ملك فهذا غلط، ولا دليل عليه.

وعلى كل حال يمكن أن يأتي وحي إلى غير نبي، فالله -عز وجل- قال: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ} [سورة القصص(٧)] وقد يوحى إلى نبي قبل النبوة، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- وهو في المهد قال: {إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} [سورة مريم(٣٠)] وكذلك أيضاً يوسف -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير قبل النبوة لما ذهبوا به إلى الجب كما سبق، قال: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف(١٥)] يعني: سيأتي يوم تقول لهم: تذكرون حينما فعلتم كذا وكذا {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} لا يعرفونك، ولا يعلمون أنك يوسف، وهذا الذي حصل في نهاية الأمر: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [سورة يوسف(١٥)]، فقد يوحي الله -عز وجل- إلى بعض عباده قبل النبوة، ومريم حينما جاءها جبريل -عليه الصلاة والسلام- وخاطبها، قالت له: {إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا} [سورة مريم(١٨)] فأخبرها أنه رسول من الله -عز وجل-: {إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [سورة مريم(١٩)].

على كل حال فالقول بأنه نبي لا يوجد ما يدل عليه دلالة قاطعة، والآية تحتمل هذا، والنبوة لا تثبت بالاحتمال، والعلم عند الله -عز وجل.

وأما ما يذكر من حياته، أو من أنه وجد منذ آدم -صلى الله عليه وسلم-، يعني: من ولد آدم وبقي حتى يكذب الدجال، فهذا لا دليل عليه، وكل ما يذكر من أنه باق، وأنه موجود فكل هذا من الخزعبلات التي لا أساس

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (٤/ ١٥٦- ٣٤٠٢).

لها، وهي التي تعلق بها كثير من الصوفية، وبنوا عليها كثيراً من الأوهام والأكاذيب والترّهات، ومما يدل على أنه غير موجود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنه لا يبقى على رأس المائة ممن هو على ظهر الأرض أحد، فلو كان الخضر موجوداً لمات على رأس المائة.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١١)

من قوله تعالى"فلما جاوزا قال لفتاه" الآية ٦٢ إلى قوله تعالى"حتى أحدث لك منه ذكرا" الآية ٧٠

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: روى البخاري[1] عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر -عليه السلام- ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبيّ بن كعب -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم ؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب وكيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمِكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمه، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون -عليه السلام- حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، واضطرب الحوت في المِكتل، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} [سورة الكهف: (٦٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الرواية في صحيح البخاري وقد جاءت روايات متعددة في خبر موسى -عليه الصلاة والسلام- مع الخضر تبين السبب الذي من أجله ذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- يطلبه، وكذلك هي تبين أن الذي وقع له ذلك هو موسى -عليه الصلاة والسلام- النبي المعروف الكريم وليس برجل آخر يسمى بهذا الاسم كما يزعم بعض الإسرائيليين.

وقوله: ((فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق))، أي: يعني مثل الكوة التي تكون في الجدار، مثل النفق، أو السرب، فبقي الماء ثابتاً وصار مكان دخول الحوت كالجحر، يُشاهَد ويُعرَف مكان الدخول.

قوله: ((فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا})).

لم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، ولهذا قال بعض أهل التفسير: {لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا} يعني: الذي كان بعد الاستراحة، ولم يجد هذا النصَب في أول سفره.

---

[1] - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (١٢٤٦/٣)، برقم: (٣٢٢٠).

((ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} [سورة الكهف (٦٣)]، قال: فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فقال: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} [سورة الكهف: (٦٤)])).

قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً))، وهذا يدل على أن قوله: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} يحتمل أن يكون هذا من الموصول لفظا المفصول معنى، يعني قوله: {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} من كلام يوشع -عليه السلام.

ويحتمل أن يكون المعنى {وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف: (٦٣)]، وانتهى {وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} يكون من كلام الله.

فقال: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} [سورة الكهف: (٦٤)] قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجّى بثوب، فسلم عليه موسى فقال الخضرُ: وأنَّى بأرضك السلام! فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال أتيتك لتعلمني مما عُلمت رشداً، {قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} [سورة الكهف: (٦٧)]، يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً} [سورة الكهف: (٦٩)].

قوله: ((يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه)) هذا من الأدلة على أن الخضر كان نبيا، وهذا القول نسبه بعضهم للجمهور، وعلى كل حال المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، ولكن النبوة لا تثبت بالاحتمال.

قال له الخضر: {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً}، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْل.

بغير نوْل يعني بغير أجرة.

فحملوهم بغير نَول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى.

القدوم يعني الآلة المعروفة، لازلنا نسميها قدوماً.

فقال له موسى: قد حملونا بغير نَوْل فعمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً}، قال: وقال رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: ((فكانت الأولى من موسى نسياناً)).

قوله -عليه الصلاة والسلام-: ((فكانت الأولى من موسى نسياناً)) يرد على قول طائفة من المفسرين أن موسى -عليه الصلاة والسلام- قال: {لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} اعتراضاً عليه بمعنى أنه يقول: ما نسيت، يعني: بما تركتُ من موافقتك، فإن النسيان يأتي كما هو معروف لمعنيين:

المعنى الأول: الذهول عن المعلوم.

المعنى الثاني: الذي هو الترك {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر: (١٩)]، {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا} [سورة طـــه: (١٢٦)]، يعني: تركتها، فالنسيان يأتي بمعنى الترك، فبعض المفسرين يقول: إنه قال له: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} [سورة الكهف: (٧٣)] يعني: بما تركتُ من موافقتك وعارضتك به، فلا تؤاخذني به، مع أن هذا القول يخالف ما حصل الاتفاق عليه في أول الأمر {فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [سورة الكهف: (٧٠)]، وقال له: {سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [سورة الكهف: (٦٩)]، فكيف يقول له فيما بعد: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ}، يعني: لا تؤاخذني بما تركت من طاعتك وعدم معارضتك؟، فهذا بعيد، بل هو غير صحيح، ويدل على أنه غير صحيح، ما جاء في الحديث هنا: ((فكانت الأولى من موسى نسياناً)).

((قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله)).

قوله: ((إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان))، هذا يرد على قول من قال من المفسرين بأن الغلام المقصود به رجل كبير، ومن المعلوم أن الغلام في لغة العرب قد يطلق على الكبير لسبب من الأسباب: إما لضعف عقله فيكون مثل الغلام، أو لضعف شأنه كأن يكون خادماً، يقال: غلام لبني النجار، غلام لبني فلان، وقد يقال له ذلك تحقيراً لشأنه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هلاك أمتي على يد أُغيلمة من قريش))[٢]، فهم ليسوا أطفالاً، وقد ذهب طائفة من أهل العلم في تفسير هذا الحديث إلى أنهم يزيد بن معاوية وأمثاله.

فالشاهد أن الغلام يطلق على الكبير أحياناً لسبب من الأسباب، والذي حمل من قال إن الغلام الذي قتله الخضر كان كبيرا أنه كيف يقتل هذا الغلام البريء ولم يصدر منه ما يوجب القتل، فقالوا: الغلام هو الكبير، أي أنه رجل فسماه غلاماً، لكن هذا بعيد من وجهين:

الأول: أنه قال في الحديث: ((وجد غلاماً يلعب مع الغلمان)) فهذه قرينة واضحة تدل على أنه صبي.

الثاني: أنه قال له: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا} [سورة الكهف: (٧٤)]، والنفس الزكية أي: الطاهرة من الذنوب.

وقال بعض أهل العلم: إن الغلام يطلق على ما قبل البلوغ، يعني ما لم يبلغ يقال له غلام، فمن كان مميزاً فإنه يكون مكلفاً بالإيمان والتوحيد دون تفاصيل الشريعة، لكن يكون مكلفاً بالتوحيد؛ لأنه يميز، وقالوا: إنه إذا وقع منه ردة –أي من المميز- فإنه يحكم عليه بمقتضى ذلك، ولا يعاقب بالقتل، لكن يزجر فيمكن أن يعزر، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((واضربوهم عليها لعشر))[٣]، فيضرب على ترك الصلاة، فكيف بما هو أعظم من ذلك، فلو أنه صرح بالكفر أو بسب الله -عز وجل-، أو بنحو ذلك، أو قال: إنه يهودي أو

---

[٢] - رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣ / ١٣١٩)، برقم: (٣٤١٠).

[٣] - رواه أحمد (٣٦٩/١١)، برقم: (٦٧٥٦)، وهو حديث حسن.

نصراني، فبعض أهل العلم يقول: هو مكلف بالتوحيد فوقع عليه ما وقع من الخضر، فلم يبلغ الغلام، ولكنه مكلف بالتوحيد.

وقال بعض أهل العلم: إنه ليس مكلفاً في شريعتنا، ولكن قد يكون التكليف في شرع من قبلنا بالتمييز، وهذه المسألة تتعلق بقضية وهي: هل يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه أو لا؟.

وقد تقدمت هذه المسألة في درس عمدة الأحكام في الكلام على حديث أبي سفيان لما قالت هند –رضي الله عنها– ((إن أبا سفيان رجل شحيح))[٤]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يستفصل منه، ولم يسأله، ولم يطالب بالبينة.

وقد جاء عند البخاري من حديث أم سلمة -رضي الله عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار))[٥].

ولهذا لما جاء نافع بن الأزرق -وهو من كبار الخوارج- وسأل ابن عباس –رضي الله عنهما- عن قتل الغلمان، فقال له ابن عباس: إن كنت كالخضر تعلم المؤمن من الكافر فاقتله.

فقال له موسى: **{أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا}** [سورة الكهف: (٧٤-٧٥)]، **قال: وهذه أشد من الأولى، {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي}**، [سورة الكهف: (٧٦)].

أشد من الأولى باعتبار الزيادة؛ لأن زيادة المبنى بزيادة المعنى، ففي الأولى قال له: **{أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [سورة الكهف: (٧٢)]، وفي الثانية قال له: **{أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا}** [سورة الكهف: (٧٥)]، فهذا فيه زيادة في المعاتبة.

{قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ}، **[سورة الكهف: (٧٦- ٧٧)]، أي: مائلاً، فقال الخضر بيده {فَأَقَامَهُ}، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً}.**

قوله: فقال الخضر بيده فأقامه، هذه الأشياء يحتاج إليها؛ لأن المفسرين منهم من يقول: هدمه ثم بناه، وبعضهم يقول: قال به بيده فكان ذلك على سبيل الأمر الخارق للعادة، أي: أمر معجز، وكرامة من الله -عز وجل- للخضر بدون هدم الجدار المائل؛ لأنه لا يمكن أن يقام الجدار المائل باليد بدون هدم.

ولا نستشكل كلمة "قال"؛ لأن "قال" لا تأتي بمعنى القول فقط باللسان، وإنما تأتي بحركة طرف من أطراف الإنسان، كأن تقول: قال بيده، وقال بثوبه، وقال برجله، وقال برأسه، وقال بالسيف.

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها من معروف (٢٠٥٢/٥)، برقم: (٥٠٤٩)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب قضية هند (١٣٣٨/٣)، برقم: (١٧١٤).

[٥] - رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب موعظة الإمام للخصوم (٦ /٢٦٢٢)، برقم (٦٧٤٨).

ولما ذكر ابن جرير -رحمه الله- القولين، قال: وجائز أن يكون كذا وجائز أن يكون كذا، كأنه يقول: ليس عندنا ما يدل على أنه هدمه ثم بناه، أو أنه أقامه بيده، كل هذا احتمال، لكن هذا الحديث يدل على أنه لم يهدمه، والقضية قد لا تكون ذات أهمية كبيرة، لكن فيها فائدتان:

الفائدة الأولى: كيف نتبين ضعف بعض الأقوال ؟ فقد كانت مخالفة للحديث.

الفائدة الثانية: أن هذا أيضاً فيه معجزة، وخوارق عادات من الممكن أن يحتج بها من يقول: إنه نبي، فضلاً عن كونه عرف أصلاً أن هذا تحته كنز، وخوارق العادات لا تختص بالأنبياء كما هو معروف، واصطلاح المتأخرين على تسمية ما وقع من ذلك للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بالمعجزات، وما وقع لأتباعهم بكرامات الأولياء، وكل ذلك في لغة الكتاب والسنة يقال له الآيات، والبينات، وآيات الأنبياء، والسلف يقولون: آيات الأنبياء، ويعبر عنه بدلائل النبوة، ثم صار المتأخرون يفرقون ولا مشاحّة في الاصطلاح، فما وقع لنبي فهو معجزة وما وقع لتابع نبي فهو كرامة، وكرامات الأولياء معجزات للأنبياء.

{قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف: (٧٨)]، **فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما))**.

قال سعيد بن جبير -رضي الله عنه-: كان ابن عباس -رضي الله عنهما- يقرأ: {وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً}، وكان يقرأ: {وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنيْن}.

هذه القراءات توضح إشكالاً، فمن قرأ لأول وهلة قوله -تبارك وتعالى-: **{أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}** [سورة الكهف: (٧٩)]، فقد يقول: وما أثر عيب السفينة فيما ذكر، فالملك سيأخذ السفينة غصبا، سواء كانت صالحة أو معيبة، فهذه القراءة تبين المراد أنه لم يكن يأخذ المعيبة وإنما يأخذ الصالحة فقط، ومن خلال القراءة المتواترة لا يتبين هذا المعنى، فيُرَدّ السؤال والإشكال بقراءة ابن عباس -رضي الله عنهما.

قوله: **{فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}** [سورة الكهف: (٨٠)]، يعني: أنه طُبع كافراً، وقال بعض أهل العلم: إن الإنسان يكون مكلفا بالتوحيد قبل البلوغ، وهذا الغلام كان كافرا بالتوحيد.

ثم رواه البخاري[٦] نحوه وفيه: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام، قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: {آتِنَا غَدَاءنَا}، قال: وساق الحديث، ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه.

حرف الشيء أي طرفه، فحرف السفينة طرفها.

---

[٦] - رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الكهف (١٧٥٧/٤)، برقم: (٤٤٥٠).

{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} [سورة الكهف: (٦٦-٧٠)]، **يخبر تعالى عن قيل موسى -عليه السلام- لذلك الرجل العالم وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ}، سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم، وقوله: {أَتَّبِعُكَ}، أي: أصحبك وأرافقك، {عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}، أي: مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها {قَالَ} الخضر لموسى: {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}، أي: إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك؛ لأني على علم من علم الله ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي، {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}، فأنا أعرف أنك ستنكر علي ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعتَ على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعتُ أنا عليها دونك.**

وجه التلطف الذي أشار إليه ابن كثير -رحمه الله- أنه جاء بأسلوب العرض {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا} [سورة الكهف: (٦٦)]، فلم يقل علمْني، وهذا من الأدب الكامل، ومن أدب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ونظائره في القرآن موجودة، فلو تتبعت أخبار الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما قصه الله علينا من قصصهم تجد أشياء من الأدب الجم الرفيع، بخلاف أولئك الذين جاءوا إلى داود -عليه الصلاة والسلام- {إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} [سورة ص: (٢١)] فلم يدخلوا من الباب وإنما تسوروا في وقت خلوته وعبادته، فأفزعوه وأخافوه، ولم يكتفوا بهذا بل قالوا له: {خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} [سورة ص: (٢٢)] بأسلوب الأمر {فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ}، ولم يكتفوا بهذا -أيضاً- بل قالوا: {وَلَا تُشْطِطْ} فكأنهم يلقنونه ويعلمونه كيف يحكم وهو ملك ونبي، فلا دخول بوجه صحيح، ولا أسلوب صحيح.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [سورة الكهف: (٦٧)]، أي: لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك.

وقد أقامت الصوفية هذه القضية وأقعدتها، وملئوا الدواوين في الكلام على العلم اللدنّي، وأن من وصل إلى العلم اللدني والمعرفة ونحو ذلك فإنه يستغني عن الشريعة، فإن الشرائع لأهل الظواهر وهم الذين لم ينكشف عنهم الحجاب فيخاطبون بهذا، وقد جاءوا بهذا القول من الفلاسفة الذين يقولون: إن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إنما جاءوا بهذه الأشياء التي جاءوا بها من أجل ضبط الناس؛ لأن العوام مثل البهائم لا يحصل لهم الانضباط إلا بالترغيب والترهيب، فهم لا يعتقدون صدق نبوة الأنبياء، ويعتقدون أن هذا لا حقيقة له، فتأثر من تأثر بذلك من أهل التصوف، ومعروف أن أهل التصوف على فريقين: منهم ما يُعرف بالتصوف الفلسفي أمثال ابن سبعين، والحلاج، والطائفة الذين هم الصوفية أهل السلوك فقط الذي يسمون بأصحاب التفسير الإشاري والتصوف العملي.

فالشاهد أن الصوفية يقولون لنا : تأخذون علمكم عن ميت عن ميت، حدثنا فلان عن فلان عن فلان، أما نحن فنأخذ علمنا عن الحي الذي لا يموت مباشرة، ولهذا كانوا يتقللون من الطعام ويُجوّعون أنفسهم من أجل الصفاء، فإذا حصل له هذا –بزعمهم- خلوة وانقطاع عن الناس مع الجوع والذكر حصل له الكشف، فتكشف له، ولهذا يأتون بأشياء ويصدقون أشياء من العجائب والغرائب، يقول لك: أهل الظاهر يحجبهم الحجاب الكثيف الغليظ لما على قلوبهم من الأدناس والأدران بحيث لا يرون الحقائق كما هي، ولذلك يقوم واحد من كبارهم ومن معظميهم أمثال ابن عربي يوم الجمعة في المسجد ويرفع ثوبه، ويخرج عورته، ويبول أمام الناس في المسجد ثم يخرج، فإذا أنكر ذلك منكر قالوا له: أنت تنكر ماذا ؟ أنت تنكر فيما يظهر لك أنه يبول لكن في باطن الأمر ليس كذلك، وكان بعضهم كما هو معروف يقع على البهيمة في الشارع ويفجر بالحمار، ويقولون: هو في الظاهر يتراءى أمامك الآن أنه يفجر بالحمار، لكنه في الواقع ليس كذلك، فأفسدوا فساداً عظيماً، ودخلت الباطنية وجاءوا بما هو أدهى وأمر، وفسروا الشريعة بأمور من الرموز والأشياء التي ما أنزل الله بها من سلطان هي غاية الكفر والضلال وقالوا: إن الظواهر -ظواهر النصوص- هذه للعامة، والبواطن لأهل الحقيقة، فصارهناك أهل حقيقة، وأهل شريعة.

فالشاهد أن الصوفية قالوا: هذا علم لدنّي لم يتفق مع شريعة موسى فشريعة موسى تحكم بالظواهر، والخضر عنده علم الباطن وعلم الحقيقة، فهم يقولون: نحن عندنا من علم الحقيقة ما ليس عند أهل الشريعة، فالفقهاء هم أهل الشريعة يحكمون على أفعال الناس: صلاة هذا صحت، طهارته، وهذا لم تصح صلاته، أما نحن عندنا علم الحقيقة، هذا زعمهم وقولهم الباطل، ولهذا بعض الغلاة منهم يصل به الأمر إلى ترك الصلاة والتكاليف باعتبار أنه وصل إلى مرحلة تسقط عنه هذه الأحكام الشرعية؛ لأنه إنما جيء بها من أجل هؤلاء العامة لما يحول بينهم وبين المعرفة والحقيقة من الحجب الكثيفة الغليظة، فإذا حصل الصفاء حصل الكشف.

فهذه أشياء تلقيت من النصارى، والنصارى تأثروا بها من فلاسفة، وأشياء أخذوها من أهل بعض الديانات الشرقية في الهند.

يذكر في ترجمة بوذا، ويزعم أتباعه أنه كان يأكل في اليوم حبة واحدة من الأرز فقط من أجل أن يحصل له الصفاء، والكشف والمعرفة، يقولون: كان يمشي وجلس تحت شجرة وبينما هو كذلك إذ كشف له عن الحقيقة، وهذا الكلام مثل كلام الصوفية.

وهذه الأشياء في الواقع قد تحصل له لكن ليست هي الكشف الذي يقولون وإنما لون من الهلوسة والخيالات، ومعروف عند الأطباء أن شدة الجوع، أو الذي يُجوّع نفسه، أو الذين يعملون رجيماً حاداً يحصل لهم من الخيالات الشيء الغريب الهائل، حتى لربما يحصل لهم خوف وقلق وانزعاج، ويتبدى لهم أمور أنهم لربما في خطر، أو يواجهون أموراً لا يدري الواحد منهم ما هي، أو أنه سيموت وأن حياته مهددة، يشعر هكذا بانزعاج وقلق وخوف، وقد رأيت بعض هؤلاء بشكل مذهل مما يعيشه من الخيالات والمخاوف التي لا حقيقة لها، والسبب هو الجوع والرجيم.

{قَالَ}، أي: موسى {سَتَجِدُنِيَ إِن شَاءَ اللّهُ صَابِراً} [سورة الكهف: (٦٩)]، أي: على ما أرى من أمورك، {وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً}، أي: ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر -عليه السلام- {قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ

تَسْأَلْنِي عَن شَيءٍ}، [سورة الكهف: (٧٠)] أي: ابتداءً {حَتَّىَ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا}، أي: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قوله: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا} [سورة الكهف: (٦٩)] ، يذكّر بالأدب الذي ذكره الله -عز وجل- في أول السورة {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ} [سورة الكهف: (٢٣-٢٤)]، وهذا على جلالة قدر موسى –عليه السلام- وعظم مكانته وقوة شخصيته -عليه الصلاة والسلام-، فقد قال في مقام التعلم: {سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}.

وقد يقول قائل: هذه الرحلة الطويلة المضنية، ما هي العلوم التي رجع بها موسى -عليه الصلاة والسلام؟ فهل اكتفى موسى بمعرفته سبب خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار؟

نقول قد تعلم الشيء الكثير، ومن المعلوم أن أهل العلم يقولون: لو سافر الإنسان من أجل مسألة إلى الصين كان ذلك.

واستفاد موسى –عليه الصلاة والسلام– الأدب الذي أدبه الله -عز وجل- به وهو أن يضيف العلم إلى الله؛ لأن سبب القضية أنه قال: أنا أعلم، فهذه الواحدة تكفي.

والناظر لأول وهلة لربما يرى بعض الأمور التي ينزعج منها ويقلق، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك عن أمور ما كانت تخطر له على بال، فما يقع لموسى -عليه الصلاة والسلام- مع قومه، وما وقع للنبي -صلى الله عليه وسلم- من التكذيب والأذى وما إلى ذلك من هذه الأمور، وما يُمتَّع به هؤلاء الذين يكذبون ويحاربون الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وما يرى ما هم فيه من التمكين أو نحو ذلك مما تنزعج له القلوب أحياناً ويقلق له الإنسان، لكن ذلك ليس هو نهاية المطاف، هذا أمر يتبدئ الآن، ولكن ليست العبرة به، العبرة مما سيكون بعده.

فهذا التمتيع الذي يحصل لهم هو شيء مؤقت لكن العبرة بما يعقبه، فما يشاهده الإنسان من أمور مقلقة ليس العبرة فيها بما يجري في لحظته وساعته، وإنما العبرة بما ينتج عن ذلك ويحصل بعده، فهذه يحتاج إليها من يدعو إلى الله، ومن يعلّم الناس ومن يربيهم، فلا يحصل له جزع ولا انقطاع ولا يضيق صدره بما يمكرون ونحو ذلك، فقصة موسى –عليه الصلاة والسلام– والخضر فيها من الدروس الكبيرة التي تروض النفس على الصبر والتحمل والنظر إلى العواقب، وأن لا يغتر الإنسان بما يحصل من قِبل أعداء الرسل –عليهم الصلاة والسلام.

وإذا حصل من الإنسان خطأ أو انحراف أو تقصير فليس هو النهاية، فقد يكون هذا الإنسان ولياً من أولياء الله فيما بعد فلا تيأس منه، ولا تبتر هذا الإنسان بتراً، أو تتعامل معه معاملة من يبتره ومن يقطعه، فقد يفتح الله –عز وجل– على قلبه، كما قال الله تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [سورة الممتحنة: (٧)] فصار هؤلاء مجاهدين وقادة وأئمة هدى كما هو معلوم، أسلم أبوسفيان، وأسلم الحارث بن هشام أخو أبي جهل، وأسلم معاوية وعكرمة وخالد بن الوليد وأمثال هؤلاء، ومواقفهم مشهودة معلومة، فالله -عز وجل- يغير من حال إلى حال.

(مسألة)

القراءة الصحيحة يشترط فيها: صحة الإسناد، مع وجه عربي، وموافقة الرسم العثماني ولو احتمالاً، ووافقت اللغة العربية ولو بوجه ولو لم يكن هو الأفصح لكنه وجه صحيح، فقد يصح الإسناد ولكن لا توافق الرسم العثماني.

(مسألة)

المعجزات ليست من علم الباطن، والصوفية يقصدون بعلم الباطن خلاف الظاهر، الشريعة تأمر بالصلاة والزكاة والصوم إلى آخره، وعلم الباطن يقولون: هذه الأمور لها باطن آخر يدركه أهل الحقيقة، فالباطنية مثلاً يقولون: الصلاة بمعنى مناجاة الولي، والصيام كتم الأسرار المذهب، وهذا هو عين الكفر، فالشريعة ليس لها باطن وظاهر، ولا يجوز لأحد أن يخرج عنها، ليس لها باطن وظاهر، والقرآن ليس له باطن وظاهر، وأما ما ورد من أن كل آية وكل حرف له بطن وظهر هذا لا يصح، والقرآن خاطبنا بلسان عربي مبين، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يأمرون الناس بالشرائع وهم أعلم الناس بالله، وكانوا أول من يمتثل هذا وهم أتقى الأمة لله، وأما هؤلاء الكذبة من الدجالين الذين يأتون بأمور من المنكرات والفواحش ثم يقولون بأن هذا يتراءى أنه فاحشة ومنكر لأهل الظواهر ويتركون التكاليف ويترك الصلاة، ويقول الواحد منهم: أنا صرت من أهل الحقيقة، وسقطت عني الشريعة، ويسعني ما وسع الخضر، فنقول له:

أولاً: الخضر لم يكن على شريعة موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولم يكن تابعاً له أصلاً، ولهذا سأله: قال موسى بني إسرائيل؟، ولم تكن دعوة موسى -عليه الصلاة والسلام- دعوة للأسود والأحمر مثل دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فلا يسع أحداً من الناس أن يخرج عن شريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- ويتحلل ويتخفف من التكاليف الشرعية بحجة أنه مثل الخضر مع موسى، فالشريعة يجب العمل بها، وامتثال ذلك، ولا تؤول بمعانٍ باطنة ما أنزل الله بها من سلطان، وآيات الأنبياء ليست من الباطن في شيء هي من الأمور الظاهرة الجلية الواضحة التي يشاهدها كل أحد، والصوفية كلامهم في هذا طويل.

ومن أراد أن يعرف كلاماً أكثر عن الخضر وهل هو حي أم ميت، فليراجع فتح الباري في الجزء السادس في كتاب أحاديث الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– باب حديث موسى مع الخضر – عليهما السلام.

وأيضا ذكر الشنقيطي –رحمه الله- في أضواء البيان في تفسير هذه الآيات، وتكلم شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– على هذه المسألة.

بسم الله الرحمن الرحيم.

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٢)

من قوله تعالى"فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة" الآية ٧١ إلى قوله تعالى"ما لم تسطع عليه صبرا" الآية ٨٢

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [سورة الكهف(٧١-٧٣)] **يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر: أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْل، يعني: بغير أجرة، تكرمة للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي: دخلت اللجّة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى -عليه السلام- نفسه أن قال منكراً عليه: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧١)] وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل.**

{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] قال مجاهد: منكَراً، وقال قتادة: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: {أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٢)] يعني: وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها؛ لأنك لم تُحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت، {قَالَ} أي: موسى -عليه السلام-: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا} [سورة الكهف(٧٣)] أي: لا تضيق عليّ، ولا تشدد عليّ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((كانت الأولى من موسى نسياناً))[١].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] يقول: فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها، فلم يملك موسى -عليه السلام- نفسه أن قال منكراً عليه: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧١)] وفي قراءة حمزة والكسائي: {ليغرق أهلُها}.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان (٨/١٣٦- ٦٦٧٢) ومسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- (٤/١٨٤٧- ١٧٠) (٢٣٨٠).

فقوله: {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧١)] اللام هذه للعاقبة وليست للتعليل، بمعنى أنه ما خرقها من أجل أن يغرق أهلها، ما فعل هذا ليغرقهم، وإنما للعاقبة، كما قال الله -عز وجل- عن موسى -صلى الله عليه وسلم-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [سورة القصص(٨)] هم ما التقطوه من أجل أن يكون لهم عدواً، لكن هذا ما حدث في العاقبة ونهاية الأمر، {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧١)] أي: في العاقبة، وفي القراءات الأخرى المتواترة: {ليغرق أهلُها} إذا خلعت لوحاً من ألواحها وخرقتها.

{لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] يقول: قال مجاهد: منكَراً، وقال قتادة: عجباً، ويقال: أَمِر أمرُه إذا اشتد وعظم، كما قال أبو سفيان: "لقد أمِر أمر ابن أبي كبشة أن صار يخافه ملك بني الأصفر" في القصة المعروفة، فالشاهد {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [سورة الكهف(٧١)] أي: شيئاً عظيماً شديداً كبيراً، وهو خرق هذه السفينة؛ لأن ذلك هو الذي قابلت به فعلهم من الإحسان؛ حيث حملونا من غير نول، وكذلك أيضاً فعلت فعلاً من شأنه أن يغرق أهل السفينة.

ولهذا فإن بعضهم يقول: إن {إِمْرًا} هنا أشد من الثانية، وهي أنه لما قتل الغلام قال له: {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا} [سورة الكهف(٧٤)] بعضهم يقول: {إِمْرًا} هي أشد من (نكراً) أي: الشيء العظيم، وذلك أنه يغرق أهل السفينة، وأما قتل الغلام فهو هلاك نفس واحدة، ولكن هذا فيه نظر، والله تعالى أعلم.

ويرد هنا سؤال وهو أن يقول قائل: كيف خرق السفينة وهم ينظرون إليه وهم مُلّاكها، وفي نفس الوقت قد ركبوها وما منعوه؟ ثم أيضاً كيف قتل الغلام؟ فأين الناس عنه؟ كيف يقتل الغلام ويمضي؟ فبعضهم يذكر أنه لا يُرى، الناس ما يرونه، لكن هذا لا دليل عليه إطلاقاً، بدليل أنهم عرفوه –أي أصحاب السفينة- فحملوهم من غير نول.

فالحافظ ابن حجر -رحمه الله- في الفتح في الكلام على حديث موسى والخضر في أحاديث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تكلم على بقاء الخضر، وهل هو موجود؟ وذكر آثاراً ونقولات وأشياء ممن يزعمون أنه موجود، وأن فلاناً قابله، وكل هذه الأشياء لا تثبت، وذكر الحافظ أنها لا تثبت، وذكر أن أجود ما روي في هذا ما جاء من أن رجلاً كان يصحب عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يمشي معه قد أخذ بيده، فسأله رجل قال له: من هذا الذي كان يمشي معك؟ قال: أرأيته؟! قال: نعم، قال: إنك -أو لعلك- رجل صالح؛ حيث رأيته، هذا الخضر، وهذا يحتج به من يقول بأن الخضر موجود، ويذكرون حكايات في هذا.

فالحافظ يقول: هذا أصح ما ورد، والله أعلم بهذه الحكاية، وذكر الحافظ أن الجواب عن الاعتراض بأنه على رأس المائة لا يبقى أحد، قال: هذا يكون قبل رأس المائة، يعني: قبل خلافة عمر بن عبد العزيز، وفي النفس من هذا شيء كثير.

وعلى كل حال الخضر لا وجود له، ولو كان موجوداً للقي النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولقي الخلفاء الراشدين، ولقي الصحابة، أما هذه الروايات التي لا يدرى ما هي؟ فهي ضعيفة.

فالشاهد أن بعضهم يقول: ما كان يُرى، ويدل على بطلان هذا أنهم رأوه وعرفوه، بعضهم يقول: لعله كان مطاعاً معروفاً عند الناس، فيذعنون له، ولا يعترضون عليه، وهذا قريب، والله تعالى أعلم.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا* قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا} [سورة الكهف(٧٤-٧٦)] **يقول تعالى: {فَانطَلَقَا} أي: بعد ذلك {حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ}** [سورة الكهف(٧٤)] **وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم فقتله، فلما شاهد موسى -عليه السلام- هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: {أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً}** [سورة الكهف(٧٤)] **أي: صغيرة لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد فقتلته {بِغَيْرِ نَفْسٍ}** [سورة الكهف(٧٤)] **أي: بغير مستند لقتله {لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا}** [سورة الكهف(٧٤)] **أي: ظاهر النكارة.**

{قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٥)] **فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلهذا قال له موسى: {إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا}** [سورة الكهف(٧٦)] **أي: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة {فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا}** [سورة الكهف(٧٦)] **أي: أعذرتَ إليّ مرة بعد مرة، روى ابن جرير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: ((رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: {إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا}**[سورة الكهف(٧٦)]))[٢].

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ}** [سورة الكهف(٧٤)] في قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو **{زاكية}** بعضهم يفرق بين الزكية وبين الزاكية، فيقول: الزاكية هي التي لم تذنب، النفس الطاهرة التي على الفطرة، والزكية هي التي أذنبت ثم تابت، وبعضهم يقول: القراءتان بمعنى واحد، يقال: زكية وزاكية.

وقد قال بعض أهل العلم في الغلام الذي قتله الخضر -رحمه الله-: إنه كبير وقيل له غلام، والعرب قد تقول ذلك للكبير، وهذا فيه إشكال، فلا فرق عنده بين زكية وزاكية؛ لأن هذا قد أذنب، ومن يقول: إنه غلام صغير فقد يفرق بين الزكية والزاكية، ومرجع ذلك إلى لغة العرب.

وقال له: **{لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا}** [سورة الكهف(٧٤)] يعني: أنه قال له قولاً أشد من الأول، وكما سبق أنّ قوله: **{إِمْرًا}** [سورة الكهف(٧١)] في خرق السفينة أخف من قوله: **{نُّكْرًا}** وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- تعليقاً على قوله: **{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}** [سورة الكهف(٧٢)] قال: فأكد أيضاً في التذكار، يقصد أنه قال له: **{أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ}** [سورة الكهف(٧٥)] وفي خرق السفينة قال: **{أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ}** [سورة الكهف(٧٢)] وذكرنا بالأمس أن زيادة المبنى لزيادة المعنى.

وقوله: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، يعني: يبدأ بالدعاء لنفسه، إذا قال: رحم الله فلاناً، يقول: رحمنا الله وفلاناً، يبدأ بالدعاء لنفسه **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا}** [سورة نوح(٢٨)] هذا هو المراد.

---

٢ - أخرجه النسائي في السنن الكبرى، في كتاب التفسير، قوله تعالى: {إن سألتك عن شيء بعدها} [الكهف: ٧٦] ١٠/ ١٦٥- ١١٢٤٨).

قال: فقال ذات اليوم: ((رحمة الله علينا، وعلى موسى)) يعني: القضية الأولى منفصلة عن القضية الثانية.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٧-٧٨)] يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما {انطلقا} بعد المرتين الأوليين {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} [سورة الكهف(٧٧)] روى ابن جرير عن ابن سيرين أنها الأيلة، وفي الحديث: ((حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً))[٣] أي: بخلاء {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ} [سورة الكهف(٧٧)] إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض هو السقوط، وقوله: {فَأَقَامَهُ} [سورة الكهف(٧٧)] أي: فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه، ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له: {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا} [سورة الكهف(٧٧)] أي: لأجل أنهم لم يضيفونا، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} [سورة الكهف] أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ} [سورة الكهف(٧٨)] أي: بتفسير {مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٨)].

يقول: {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} [سورة الكهف(٧٧)] روى ابن جرير عن ابن سيرين: أنها الأيلة، وبعضهم يقول: أنطاكية، وبعضهم يقول: برقة، وبعضهم يقول: من قرى أذربيجان، وبعضهم يقول: من قرى الروم، كل هذا بناء على ما ذكر بالأمس في {حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ} [سورة الكهف(٦٠)]، بعض أهل العلم يقول: مجمع البحرين في الشرق، وبعضهم يقول في الغرب، وكل ذلك من المنقول عن بني إسرائيل، ومثل ذلك لا يعتمد عليه.

وقوله: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ} [سورة الكهف(٧٧)] يقول الحافظ -رحمه الله-: إسناد الإرادة هاهنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، بمعنى أنه ليس بحقيقة، بعضهم يدخل الاستعارة في المجاز، وبعضهم يجعلها نوعاً قائماً بذاته، وهذا المثال من أشهر الأمثلة التي يمثل -أو يستدل- بها أصحاب المجاز، يقولون: أسند الإرادة إلى الجدار، والجدار لا إرادة له، هذا مجاز وليس بحقيقة، هذا مع قوله -تبارك وتعالى- فيما مضى في سورة يوسف -عليه الصلاة والسلام-: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا} [سورة يوسف(٨٢)] قالوا: والقرية لا تُسأل، وإنما المقصود أهل القرية، وهذا من مجاز الحذف، وهنا {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ} [سورة الكهف(٧٧)]، استعار للجدار إرادة، ولا إرادة للجمادات، والذين يقولون بنفي المجاز بعضهم يقول: إن هذا مما يفهم من السياق، فإذا قيل: اسأل القرية، فإن المقصود بالسؤال سؤال أهل القرية، أو يقال بأن القرية والعير تطلق على هذا وهذا، تطلق على الحال والمحل، تطلق على أهلها، وتطلق على كل ذلك، فعلاقته كما يقول أهل المجاز: الحالية والمحلية، فالذين ينفون المجاز يقولون: هذا يفهم من السياق، وليس بمجاز بل هو حقيقة، وبعضهم يزيد على هذا ويقول: ما المانع من سؤال نفس القرية التي هي البنيان؟ وما

---

٣ - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- (٤/١٨٥٠- ١٧٢) (٢٣٨٠).

المانع من أن يكون للجدار إرادة؟، فالله -عز وجل- قال للسماوات والأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [سورة فصلت(١١)] والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ بمكة قبل أن أبعث))[٤] ويذكرون حنين الجذع، وما أشبه ذلك، ويقولون: هذه كما أخبر الله -عز وجل- أنه يسجد له ما في السماوات وما في الأرض، وكذلك أيضاً يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض، فهذه الجمادات تسبح وتسجد وتعرف ربها، فما المانع من أن يكون للجدار إرادة ؟ هكذا قالوا.

ومسألة المجاز مسألة معروفة، والخلاف فيها موجود بين أهل السنة، لا يترتب عليه تبديع ولا قدح في عقيدة قائله، إذا لم يسلط ذلك على النصوص التي لا يسوغ تأويلها بحال من الأحوال، فلا دليل فيها على هذا التأويل، كما في نصوص الصفات والمعاد، وما أشبه هذا، والغلط الذي وقع فيه أرباب المجاز أنهم جعلوا ذلك مِعْولاً سلطوه على النصوص فحرفوها عن معانيها الظاهرة إلى معانٍ أُخر من غير دليل يوجب ذلك، فهذا من التحريف؛ ولهذا سمى الحافظ ابن القيم -رحمه الله- المجاز بحمار التأويل، فإن التأويل يأتي راكباً على المجاز حتى يصل إلى النصوص، ومن شاء فليراجع في هذا مثل كتاب الرسالة المدنية وكتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-، وكتاب الصواعق المرسلة، وكذا كتاب منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وتوجد على كل حال كتابات في هذا، ورسائل جامعية، والله أعلم.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى -عليه السلام-، وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر -عليه السلام- على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة {يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [سورة الكهف(٧٩)] صالحة، أي: جيدة {غَصْبًا} [سورة الكهف(٧٩)] {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام.

قوله: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ} [سورة الكهف(٧٩)] هذا الموضع يحتج به من يقول بأن الفقير أشد حاجة من المسكين، يقولون: إن الفقير ليس عنده شيء، وأما المسكين فعنده، لكنه لا يكفيه، فأثبت الله -عز وجل- لهؤلاء المساكين هذه السفينة، وسماهم مساكين، وبعضهم يقول بالعكس: إن المسكين هو الذي تمسكن لشدة حاجته، فسكنت جوارحه لشدة فقره وعوزه، وأما الفقير فإنه أحسن حالاً منه، ويحتجون ببيت الشعر المعروف:

أمّا الفقيرُ الذي كانت حلوبتُه*** وفقَ العيال فلم يُتْرك له سَبَدُ [٥][٦]

---

٤ - أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢/٢٤٤/١٩٠٧) و"الأوسط" (٢٢٠٦) و"الصغير" (رقم ١٨٥ -الروض) ومن طريقه أبو نعيم في "أخبار أصفهان" (١/١٠٨) و"دلائل النبوة" (ص٣٤١). وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٤/ ١٧١).

٥ - السَّبَد: القليل من الشعر، وماله سبد ولا لبد، لا قليل ولا كثير، القاموس (٣٦٦).

قالوا: عنده حلوبة، وعنده دابة، بهيمة تُحلب، فعنده شيء لكنه لا يكفيه، والخلاف في هذا معروف.

وهذه الآية يحتج بها من يقول بأن المسكين أحسن حالاً من الفقير، ولكن هذا الاستدلال فيه نظر، وذلك أن المسكين إذا أطلق بمفرده من غير ذكر الفقير فإنه يكون بمعنى الفقير، فإذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا في المعنى.

لكنكم تجدون مثل هذه الآية يحتج بها من يقول بأن الفقير أحسن حالاً منه، وتجدون هذا في كتب اللغة، وفي كتب الفقه، وكتب التفسير، وأيضاً في بعض الكتب التي تتحدث عن السلوك، والاحتجاج بهذا ذكرت لكم فيه هذا الملحظ.

أما ظاهر اللفظ فقد يفهم منه أن المسكين أشد حاجة من الفقير، أنه من شدة فقره قد سكنت جوارحه، ولا حراك به، هذا من حيث ظاهر اللفظ، أما الدليل على أن هذا أشد حاجة أو ذاك أشد حاجة فلا أعلم دليلاً عليه، وهذا الدليل يُحتج به عادة، وذكرت لكم ما يرد عليه من الإشكال، والله تعالى أعلم.

قوله: {لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] وفي قراءة شاذة: {لمسّاكين يعملون في البحر} يريد أن يقول: إنهم لا يملكون السفينة أصلاً، هذا من يقول بأن المسكين أشد حاجة من الفقير، {مسّاكين} يعني: يعملون فيها لغيرهم، أو بالأجرة، وليست ملكاً لهم.

وقوله: {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [سورة الكهف(٧٩)] يرِد عليه ما ذكرته بالأمس: أن ظاهره يرِد عليه سؤال قد يستشكل على القارئ، يقول: يأخذ كل سفينة غصباً فإذا خرقها الخضر فستؤخذ، فما فائدة الخرق والعيب؟ فالجواب: أنه لا يأخذ كل سفينة، وإنما يأخذ كل سفينة صالحة غصباً، ويدل على هذا قراءة ابن عباس وأُبيّ: {يأخذ كل سفينة صالحة غصباً} وهذه قراءة أحادية، وذكرنا أن القراءة الأحادية تفسر بها القراءة المتواترة، فخرقَها من أجل أن لا يأخذها الملك.

وقوله: {وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ} [سورة الكهف(٧٩)] الجمهور من أهل اللغة والمفسرين يقولون: {وَكَانَ وَرَاءهُم} [سورة الكهف(٧٩)] أي: أمامهم، وأن هذه اللفظة -لفظة وراء- من الأضداد، تقال بمعنى خلف، وبمعنى أمام، وأنها أطلقت مراداً بها الأمام في قوله -تبارك وتعالى-: {مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ} [سورة إبراهيم(١٦)] يعني: من أمامه، هذا الذي عليه عامة أهل العلم.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- يعترض على هذا، ويقول: إن لفظة: وراء ما تأتي في المكان بمعنى أمام، وإنما يكون ذلك في الزمان فقط، كما في قوله: ((من ورائكم أيام الصبر))[٧] يعني: فيما تستقبلون، فـ{مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ} [سورة إبراهيم(١٦)] يعني: أنه بعد حياته هذه على الكفر يصير إلى جهنم فهذا في الزمان، يعني:

---

٦ - البيت منسوب للراعي، وهو: حصين بن معاوية، وكان سيداً، وإنما قيل له الراعي لأنه كان يصف راعي الإبل في شعره وولده وأهل بيته بالبادية سادة أشراف، وكان أعور، توفي سنة (٩٠ - ٩١هـ ٧٠٩م) الشعر والشعراء (٢٧٠) في الأعلام (١٨٨/٤). وانظر: فقه اللغة وسر العربية (ص: ٥٩).

٧ - أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤/ ١٢٣ -٤٣٤١) وابن ماجه في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم} [المائدة: ١٠٥] (٢/ ١٣٣٠- ٤٠١٤). وقال الألباني: "صحيح لغيره" انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨/٣-٣١٧٢).

بعد الدنيا يصير إلى جهنم، وليست للمكان، هكذا يفرق بين الزمان والمكان، ويقول: إن ذلك لا يعرف في كلام العرب، وهذا لا يخلو من إشكال؛ لأن أهل اللغة ذكروا هذا، فقالوا: إنها من الأضداد.

وتفسير ابن القيم -رحمه الله- لـــ "وراءهم" يعني: خلفهم، هذا التفسير بأن المقصود "وكان خلفهم" قد سبق إليه، فقد قال به بعض السلف، فيقولون -وهو الذي يقرره ابن القيم -رحمه الله-: {وَكَانَ وَرَاءَهُم} [سورة الكهف(٧٩)] يعني: في طريق العودة، سيذهبون إلى هذا المكان الذي قصدوه، ثم سيرجعون {وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ} [سورة الكهف(٧٩)] فإذا رجعوا فسيمرون في طريق عودتهم بهذا الملك الذي يأخذ السفن الصالحة غصباً، هكذا فسرها ابن القيم -رحمه الله-، والتفسير الأول هو المشهور، والله أعلم.

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [سورة الكهف(٨٠-٨١)] عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً))[٨] رواه ابن جرير عن ابن عباس به؛ ولهذا قال: {فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)] أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرضَ امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: ((لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له))[٩]، وقال تعالى: {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [سورة البقرة(٢١٦)].

وقوله: {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} [سورة الكهف(٨١)] أي: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج.

في قوله: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)] يقول: أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر، وقرأ ابن عباس: {وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين} وهي قراءة ليست من القراءات المتواترة على كل حال.

فعلى قول من يقول بأن المميز مكلف بالإيمان، وأنه يحكم عليه بالإيمان أو الكفر، فيقول: هذا غلام مميز، فصدر منه الكفر، وإن كان لا يكلف بتفاصيل وفروع الشريعة والأعمال الأخرى، ومن يقول: لا تكليف إلا بالبلوغ فكما سبق بعضهم يقول: إنه أطلق الغلام وأراد به الرجل البالغ، وهنا في هذا الموضع غير صحيح؛ لأن الحديث دل على أنه وجد غلاماً يلعب مع الغلمان، ثم إن الظاهر المتبادر عند إطلاق الغلام أنه ما كان دون البلوغ، والقرآن إنما يحمل على الظاهر المتبادر، وقوله هنا: أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر

---

٨ - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- (٤/١٨٥٠- ١٧٢) (٢٣٨٠).

٩ - أخرجه أحمد (٣٣/٤٠٥- ٢٠٢٨٣) وابن حبان (٧٢٨) وأخرجه الضياء في المختارة (١٨١٥) وأخرجه هناد في الزهد (٣٩٩) وأبو يعلى (٤٢١٧) و(٤٢١٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٥٩٦)، والضياء (١٨١٦) و(١٨١٨)، والذهبي في السير (١٥/٣٤٢) وأخرجه أبو يعلى (٤٠١٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢/ ٧٣٨- ٣٩٨٥).

في تفسير {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)]، وبعضهم يقول: خشينا أن يرهق الوالدين طغياناً عليهما وكفراً بالعقوق، كفراً بنعمة الوالدين عليه بالعقوق.

وعلى كل حال فمعنى {أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)] أي: بكفره وطغيانه وتجبره وتكبره، وعتوّه على الله -عز وجل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "وهذا الغلام الذي قتله الخضر يحتمل أنه كان بالغاً مطلقاً، وسمي غلاماً لقرب عهده بالبلوغ، وعلى هذا فلا إشكال فيه، ويحتمل أن يكون مميزاً عاقلاً وإن لم يكن بالغاً، وعليه يدل الحديث، وهو قوله: ((ولو أدرك لأرهق أبويه))[١٠] وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة؛ إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما عُلم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، كيف وقد قال جماعة من العلماء: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، كما قالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو اختيار أبي الخطاب، وعليه جماعة من أهل الكلام.

وعلى هذا فيمكن أن يكون هذا الغلام مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ، ولو لم يكن مكلفاً بشرائعه، فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد عندهم صار مرتداً له أحكام المرتدين، وإن كان لا يقتل حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، واتفقوا على أنه يُضرب ويؤدب على كفره أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة، فإن كان الغلام الذي قتله الخضر بالغاً فلا إشكال، وإن كان مراهقاً غير بالغ فقتله جائز في تلك الشريعة؛ لأنه قتله بأمر الله، كيف وهو إنما قتله دفعاً لصوله على أبويه في الدين، كما قال: {فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا} [سورة الكهف(٨٠)]. والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله"[١١].

وقد استدل بعض أهل العلم بقصة قتل الخضر للغلام على جواز حكم القاضي بعلمه، ونحن نعلم أن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا، والذي في شريعتنا أنه لا يحكم على الإنسان بمجرد العلم بإطلاق، ذكرت لكم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فأقضي له على نحو مما أسمع منه))[١٢] ولم يقل: "بنحو ما أعلم" وهكذا أيضاً في أدلة أخرى يستدل بها على هذا، إلا أن القاضي يمكن أن يستعمل علمه، ويعمل بمقتضاه، ويحكم به في مواضع ثلاثة، منها:

في الكلام على الشهود، أو في قبول شهادتهم وردها، فإن القاضي إذا كان يعلم أن هذا الشاهد غير أهل للشهادة بما يعلم منه، أو ما يعلم فيه من القوادح فله أن يرد شهادته، فيعمل بمقتضى علمه، هو يعرف هذا الإنسان من قبل، فلا يقبل شهادته، فعمل القاضي بعلمه هنا فيما يتعلق بالشهود.

والأمر الثاني: وهو ما يتعلق بمجلس الحكم مما يصدر ويبدر من أحد الخصمين، فإن القاضي يلاحظ كلامه وأفعاله، فقد يرى منه أشياء تدل على كذبه، يستبينها من فلتات لسانه ونحو ذلك فيلزمه بها، ويقول له: أنت

---

١٠ - أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/٢٠٥٠- ٢٩) (٢٦٦١).

١١ - أحكام أهل الذمة (٢/١٠٤٤).

١٢ - أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (٣/١٣٣٧- ١٧١٣).

بحجتك هذه مبطل وكاذب، بناء على استنتاجات وأشياء سمعها القاضي منه، حينما تكلم وخاصم وأدلى بحجته فعرف كذبه من كلامه وتصرفاته، فحكم بمقتضى علمه بهذا الاعتبار لا بمقتضى العلم السابق، قد يكون عنده تصور أن هذا الإنسان كذاب نَفّاج، لا يرعوي ولا يتقي، فلا يحكم عليه بمقتضى العلم بأن دعواه كاذبة، وأن هذا الإنسان الذي يقابله صادق، إذن لا نقبل دعواك، ولا نسمع هذه الدعوى.

الحالة الثالثة: وهي في القضايا المشتهرة التي يعرفها الصغير والكبير، ويستوي في معرفتها الناس، لا تحتاج أن يكون القاضي يعرفها، ثم بعد ذلك يكون هذا أمراً خفياً، كيف حكم القاضي عليه؟ وبناء على ماذا؟ وما هي المستندات؟ لكن في الأمور المعروفة التي يعرفها الناس، فإذا نشأ الناس في بلد مثلاً، وكلهم يعرفون أن هذه الدار موقوفة للأيتام، فجاء إنسان وقال: هذه ملك لي، فإذا جاء عند القاضي يطالب وقدم دعوى، فإن القاضي يقول له هذا الباب مغلق، ولا يسمع منه الدعوى أصلاً، ولا يقبلها منه؛ لأن هذا أمر معروف يستوي بمعرفته الجميع، فلا يكون ظالماً له بهذا الاعتبار حينما لم يسمع منه الدعوى.

كذلك لو أنه جاء مثلاً إلى الطريق المعروف، كل الناس يعرفون أن هذا طريق، وجاء وقال: هذا الطريق ملكي، هذا الشارع ملكي ويريد تعويضاً، يقول له: من أين جاء ملكك؟ من يوم نشأت في البلد وهذا طريق، أو بئر معروفة قديمة الناس يستقون منها وهي وقف مثلاً، وجاء وقال: هذه البئر أنا الذي حفرتها، كيف حفرتَها، أنت عمرك عشرين سنة وهذه البئر لها مئات السنين؟! فهذا لا يسمع منه الدعوى، الأشياء المعروفة كمن جاء إلى وقف معروف، كل الناس يعرفون أن هذا وقف، وادعاه، أو جاء وادعى دار إنسان وكل الناس يعرفون أو أهل الحي يعرفون جميعاً أن هذه دار فلان، وهو الذي بناها، فجاء وقال: لا، هذه داري، أنا الذي بنيتها، وهذا جار القاضي، وجيرانه كلهم يعرفون أن هذا هو الذي بنى هذه الدار، ولا يخفى عليهم ذلك، فجاء إنسان وقال: لا، أنا الذي بنيت هذه الدار، وأنا أطالب بها، مثل هذا للقاضي أن يحكم بعلمه، في القضايا التي يستوي بها الناس، يستوون بمعرفتها، إذاً هذه ثلاث حالات.

"والصبي لو صال على المسلم في بدنه أو ماله ولم يندفع صياله للمسلم إلا بقتله جاز قتله، بل الصبي إذا قاتل المسلمين قتل، ولكن من أين يعلم أن هذا الصبي اليوم يصول على أبويه أو غيرهما في دينهما حتى يفتنهما عنه؟ فإن هذا غيب لا سبيل لنا إلى العلم به؛ ولهذا علق ابن عباس -رضي الله عنهما- الفتيا به، فقال لنجدة لما استفتاه في قتل الغلمان: إن علمت منهم ما علم الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا، رواه مسلم في صحيحه[١٣]."

ونجدة -كما سبق- من زعماء الخوارج.

"ولكن يقال: قاعدة الشرع والجزاء أن الله سبحانه لا يعاقب العباد بما سيعلم أنهم يفعلونه، بل لا يعاقبهم إلا بعد فعلهم ما يعلمون أنه نهى عنه، وتقدم إليهم بالوعيد على فعله، وليس في قصة الخضر شيء من الاطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها، ولم يعلم موسى تلك الأسباب مثل علمه بأن السفينة كانت لمساكين، وأن وراءهم ملكاً ظالماً إن رآها أخذها، فكان قلع لوح منها لتسلم جميعها،

١٣- أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات يُرضَخ لهن ولا يُسهَم، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب (٣/ ١٤٤٥- ١٣٨) (١٨١٢).

ثم يعيده من أحسن الأحكام، وهو من دفع أعظم الشرين باحتمال أيسرهما، وعلى هذا فإذا رأى إنسان ظالماً يستأصل مال مسلم غائب فدفعه عنه ببعضه فكان محسناً، ولم يلزمه ضمان ما دفعه إلى الظالم قطعاً، فإنه محسن وما على المحسنين من سبيل، وكذلك لو رأى حيواناً مأكولاً لغيره يموت فذكاه لكان محسناً، ولم يلزمه ضمانه، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين وأبوهما كانا صالحاً أمر يعلمه الناس، ولكن خفي على موسى -عليه السلام-، وكذلك كفر الصبي يمكن أن يعلمه الناس حتى أبواه، ولكن لحبهما إياه لا ينكران عليه، ولا يقبل منهما، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتْلٌ لما يتوقع من كفره، ولو قدر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً، ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر، وأطلع الله الخضر على ذلك فقد يقول القائل: قتله بالفعل كقتل نوح -عليه السلام- لأطفال الكفار بالدعوة المستجابة التي أغرقت أهل الأرض لما علم أن آباءهم لا يلدون إلا فاجراً كفاراً، فدعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشر أطفالهم في المستقبل، وقوله: {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [سورة نوح(٢٧)] لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله: {فَاجِرًا كَفَّارًا} [سورة نوح(٢٧)] حالان مقدرتان، أي: من سيفجر ويكفر."

من يقول: إن الإنسان يكون مكلفاً بالإيمان إذا كان مميزاً فلا إشكال عنده، ومن يقول: إن الغلام أطلق على الكبير هنا فلا إشكال عنده، ولكن هذا بعيد.

ويمكن أن يقال: الذي يعنينا في هذا الموضوع هو أن الغلام في هذه الشريعة ولو صدر منه الكفر فإنه لا يقتل، حتى لو قلنا بأنه مكلف بالإيمان، فإذا وقع منه ردة فإنه لا يقتل بذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد نهى عن قتل الصبيان، وما وقع من الخضر إما أن يكون ذلك من الجائز في شريعتهم، أو يكون ذلك فعله بأمر الله -تبارك وتعالى-، وإلا فموسى -عليه الصلاة والسلام-، قد اعترض عليه؛ لأنه قتَلَ نفساً زكية بغير نفس، ولكن قد يقول قائل: إن موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يعترض على الجواب لما قال له: **{فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}** [سورة الكهف(٨٠)] ما قال له موسى -عليه الصلاة والسلام-: إنه غير مكلف أو نحو ذلك.

وأيضاً مسألة الحكم عليه بمقتضى العلم هذا يرد عليه الإشكال السابق، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [سورة الإسراء (١٥)] والآيات التي يذكر الله -عز وجل- فيها "حتى نعلم كذا" **{حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ}** [سورة محمد (٣١)] **{وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ}** [سورة آل عمران (١٤٢)] المقصود به علم وقوع الشيء الذي يترتب عليه الجزاء، فإن الله -عز وجل- لا يؤاخذ الناس بمقتضى ما علمه وإلا فقد استخرج الناس من صلب آدم -عليه الصلاة والسلام-، وخلق خلقاً للجنة، وخلق خلقاً للنار، لكن الله لا يؤاخذهم بمقتضى العلم؛ ولهذا فإن المجنون والذي لم تبلغه الدعوة الراجح أنهم يمتحنون في الآخرة.

فالمقصود حتى أطفال الكفار الذين يموتون فالأحاديث التي وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعضها أنه قال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين))[١٤] وفي بعضها ما يشعر أنهم مع أهلهم، لهم حكمهم، وأنهم

---

١٤ - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (٢/١٠٠- ١٣٨٤) ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤/ ٢٠٤٩- ٢٦) (٢٦٥٩).

منهم، وفي بعضها ما يدل على أنهم في الجنة؛ ولعل النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في بعض المواقف بأنهم مع أهلهم وأنهم منهم، وأطلعه الله -عز وجل- بعد ذلك أنهم في الجنة، هذا بالنسبة للصغار.

وإن كان العلماء اختلفوا في المميز إذا اختار الكفر، أما الصبي غير المميز فإن الذي عليه كثير من أهل العلم من المحققين -وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن القيم، وجماعة- أنه يكون مع الأصلح من أبويه بالنسبة للدين، يتبع أمه في قضية الرق والحرية (في النكاح)، وبالنسبة للدين يكون مع الأصلح، فإذا كانت أمه مسلمة وأبوه غير مسلم، بمعنى أن رجلاً كافراً قد تزوج بامرأة كافرة فأسلمت المرأة فافترقا، فهؤلاء الأطفال يكونون مع من؟ يحكم لهم بمن؟ مع الأم، وإذا كان الأب هو المسلم والأم كافرة أُلحقوا بالأب، فالإسلام يعلو.

على كل حال يمكن أن يقال هنا: إن ذلك وقع من الخضر بأمر الله -عز وجل- له، قال: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] ومثل هذا يحفظ ولا يقاس عليه، وعندنا في هذه الشريعة أنه لا يجوز قتل الغلمان، ولا يؤاخذ الناس بمقتضى ما علم من حالهم كما سبق، هذا الذي يعنينا في الموضوع، أما لماذا قتله الخضر؟ هو يقول: {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] الله أمره بذلك، فهي حالة مستثناة؛ ولهذا استغرب منها موسى -عليه الصلاة والسلام.

{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)].

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ} [سورة الكهف(٧٧)] **وقال هاهنا: {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ}** [سورة الكهف(٨٢)] **كما قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ}** [سورة محمد(١٣)] **{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}** [سورة الزخرف(٣١)] **يعني: مكة والطائف، ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما.**

قال عكرمة وقتادة وغير واحد: وكان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله.

يعني: أن إطلاق القرية على المدينة هنا في هذه الآية صريح، ذكر أولاً القرية {أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا} [سورة الكهف(٧٧)] ثم قال: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ} [سورة الكهف(٨٢)] يعني: القرية السابقة المذكورة، فهذا الموضع صريح في القرآن على أن القرية تطلق على المدينة والعكس، وما عدا ذلك نحو {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص(٢٠)] أو {وَتِلْكَ الْقُرَى} [سورة الكهف(٥٩)] {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ} [سورة محمد(١٣)] و{لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى} [سورة الشورى(٧)] فإن لغة القرآن، واستعمال هذه الألفاظ في إطلاق لفظة قرية: تطلق على مجمع البنيان، سواء كان صغيراً أو كبيراً، كل ذلك يقال له قرية، وأما تخصيص المدينة بذات البنيان الكبير الواسع، والقرية بالصغير فإن هذا اصطلاح حادث، والقاعدة: لا يجوز حمل ألفاظ القرآن على اصطلاح حادث، وقل مثل هذا في لفظة التأويل {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}

[سورة آل عمران(٧)] وقل مثل هذا أيضاً في كثير مما ورد في القرآن كقوله: {وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ} [سورة يوسف(١٩)] ما هو المراد بالسيارة؟.

وقوله في الكنز: "**وكان تحته مال مدفون لهما، وهو ظاهر السياق من الآية، واختيار ابن جرير**".

بمعنى كنز مال، وبعضهم يقول: كنز علم، وبعضهم يقول غير ذلك، وظاهر السياق أن لفظة الكنز تدل على المال المدفون، فما كان تحت الأرض يقال له: كنز، وما فوق الأرض يقال له: مال، هذا هو المشهور المتبادر الذي تعرفه العرب عند الإطلاق، وإنما تحمل معاني القرآن أو ألفاظ القرآن على المتبادر الظاهر من كلام العرب دون المعنى الخفي إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فلا داعي للتكلف في تفسيرها بتفسيرات ومعانٍ بعيدة، فالكنز هو المال المدفون "وكان تحته" وهذا يدل عليه اللفظ: {وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)].

وقوله: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: حُفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً.

وقوله: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)] هاهنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً} [سورة الكهف(٨١)] وقال في السفينة: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] فالله أعلم.

قوله: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] الظاهر والمتبادر أن المراد به هو الأب المباشر الأقرب، وبعضهم يقول: هو الجد السابع، وبعضهم يقول: هو الجد العاشر، وكل هذا مأخوذ من الإسرائيليات، ولا دليل عليه.

{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] يقول: فيه دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ في ذريته، والقرآن دل على أنهم يرفعون إلى مرتبته في الجنة {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} [سورة الطور(٢١)] وسبق الكلام على هذه الآية، وأقوال أهل العلم، والمراد بها، وظاهر الآية هنا يدل على ما ذكر: أن صلاح الآباء قد يؤثر فيما يتعلق بالأبناء من الحفظ ونحو ذلك، لكن هذا ليس بمطرد ولا دائم.

ففي هذه الآية هنا قال: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا} [سورة الكهف(٨٢)] فوقعت هذه القضية أن الله -عز وجل- حفظ مالهما بسبب صلاح الأب، {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ} [سورة الكهف(٨٢)] والفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهي تشعر بالتعليل، وهذا الذي يقال له: دلالة الإيماء والتنبيه: أن يقرن الحكم بوصف لو لم يكن علة له لكان معيباً، {فَأَرَادَ رَبُّكَ} [سورة الكهف(٨٢)] لماذا؟ لأن الأب كان صالحاً {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا} [سورة الكهف(٨٢)] لكن هل هذا مطرد دائماً؟ الجواب: لا، هذه واقعة وقعت، فيُرجى عند صلاح الآباء أن يطال ذلك الأبناء بالحفظ، ولكنه ليس دائماً، نوح -عليه الصلاة والسلام- ما حال ولده؟ كان كافراً، غرق مع من غرق، وقال الله له: {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ

عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ} [سورة هود(٤٦)] وهذا شيء مشاهد، تجد الأب من الصالحين الأخيار، ومن العلماء، وتجد الولد فاجراً، مجرماً، لا يخاف الله -عز وجل-، ولا يرقبه، وقد يتشتت هذا الولد، ويضيع في أمر دينه

ودنياه معاً، وأبوه في غاية الصلاح، فليست هذه قاعدة، والآية ما تدل على أن هذا وعد من الله -عز وجل-، وأن كل من كان صالحاً يحفظ الله أبناءه، لا، ولكن الله لطف بهؤلاء الأبناء لصلاح الأب، وكثير من الناس يستدل بهذه الآية على أن الأولاد يُحفظون بصلاح الأب، لكن ذلك كما قلت ليس بمطرد، هذه واقعة وقعت، ولكن يوجد ما يخالفها أيضاً في الواقع، والله -عز وجل- يفعل ما يريد، فقد يُكرم الأب بالدنيا وهذا مما يعجل له بأن يحفظ ذريته وأولاده من المخاوف والمكاره ونحو ذلك، وقد لا يحصل.

الحسين بن علي -رضي الله تعالى عنه-، ريحانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تعرفون ما حصل له قُتل، وقُتل من أهل بيته كثير، وأي شيء أعظم من القتل فيما يفوت الإنسان من دنياه؟ ذهاب النفس التي تفدى بالمال، وحفظ هذه النفس من هذا القتل الجائر أولى من حفظ المال، ولكن الله يفعل ما يريد، فيقيض لعباده ما شاء، وكل ذلك بمقتضى علمه وحكمته -سبحانه وتعالى-، فيكون رفعة لهم، وفي درجاتهم ومنازلهم عند الله -عز وجل-، وهو رفعة لهم في الدنيا أيضاً، فانظر إلى حال الذين قتلوه وإلى حال الحسين؟! أي الفريقين أعظم وأجل مقاماً في قلوب أهل الإيمان؟! لا شك أنه الحسين -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

فعلى كل حال يقول: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: هنا أسند الإرادة إلى الله لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: {فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ} [سورة الكهف(٨١)] وقال في السفينة: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] هذا الفرق الذي ذكره الحافظ ابن كثير ووجه التفريق بين هذه الألفاظ في الاستعمال، حيث أسند الإرادة إلى نفسه في موضع، وأسند الإرادة إلى الله في موضع آخر باعتبار أن ذلك من غير المقدور عليه بالنسبة إليه، فأضافه إلى الله، {فَأَرَادَ رَبُّكَ} [سورة الكهف(٨٢)] والعلماء عادة يذكرون في مثل هذا لطيفة أخرى، وهي: أن ذلك من باب التأدب في العبارة، فلما ذكر العيب أضافه إلى نفسه فقال: {فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف(٧٩)] ولما ذكر ما فيه استصلاح الحال أو المال أو نحو ذلك قال: {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [سورة الكهف(٨٢)] فأضافه إلى الله -تبارك وتعالى.

وهذا يذكرون له نظائر، كقول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} [سورة الشعراء(٨٠)] فأضاف المرض إلى نفسه، بينما قال: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} [سورة الشعراء(٧٩)] فأضاف الإطعام والإسقاء إلى الله -عز وجل-، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [سورة الضحى(١-٣)] ما قال: وما قلاك، فلفظة "قلى" ثقيلة على السمع، "قلاك": بمعنى جفاك، فلم يضفها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما قال: {وَمَا قَلَى} [سورة الضحى(١-٣)].

وبعضهم يقول: هذا مراعاة للفواصل، لكن بعضهم يقول: إن هذا من باب التعليم لعباده، ولهذا تعرفون الخليفة -أظن أنه أبو جعفر المنصور أو المأمون- لما جاء بابنيه، وكان يؤثر أحدهما على الآخر، فبعضهم سأله عن

هذا، فأعطى واحداً منهم سُوُكاً -مساويك- فقال له: ما هذه؟ قال: هذه سُوُك، وقال للآخر: ما هذه؟ قال: هذه مساويك، يعني: كأنها مساوئك، سهلت الهمزة.

فالمواجهة بالخطاب في مثل هذه الأشياء التي قد تكون ثقيلة على السمع، مساويك كأنه يقول: مساوئك، قال: مساويك، ومثله: من أكبر أنت أو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ بماذا أجاب؟ قال: أنا أكبر من النبي -صلى الله عليه وسلم-، مع أن السؤال عن السن، فيجيب بجواب يقول: أنا ولدت قبله، أو يقول: هو أكبر مني، هذا من باب التأدب بالألفاظ؛ ولهذا قال الله -عز وجل-: {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} [سورة البقرة(١٠٤)] لأن كلمة "راعنا" تحتمل معنى باطلاً سيئاً، وهو مخاطبة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومواجهته ووصفه بالرعونة، كان اليهود يستعملونها لهذا المعنى، فعلّمهم كيف يتأدبون بالألفاظ، وهذا له نظائر كثيرة في الكتاب والسنة، هذه من الآداب التي يحتاج الإنسان أن يراعيها في المخاطبة.

قال: {فَأَرَدْنَا} [سورة الكهف(٨١)] وهكذا من اللطائف في التفسير كما في قوله فيما سبق: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٨)] فلما نبأه قال: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] والقاعدة: أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فلماذا قال في الأولى: {تستطع} وفي الثانية قال: {تسطع}؟ وما وجه ذلك؟

فيمكن أن يقال: إن الإنسان حينما يستشكل هذا ولا يعرف تأويله كيف يقتل هذه النفس ؟ وكيف يخرق السفينة؟ وكيف يبني الجدار من غير أجرة مع هؤلاء الناس الذين لم يضيفوهما ؟ فثقل ذلك عليه، الإنسان إذا استشكل شيئاً وما فهم المراد ونحو ذلك تضيق نفسه به، وينقبض صدره ويزعجه، فإذا عرفه سُري عنه، فخفّت اللفظة الثانية، قال: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] كما سيأتي في قوله: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] أيهما أصعب نقب هذا الجدار المبني بهذه الطريقة {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [سورة الكهف(٩٦)]، أو الصعود إلى أعلاه؟

الأسهل الصعود؛ ولهذا قال: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف(٩٧)]، وقال: {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] فالنقب أصعب فزادت حرفاً، هذه من اللطائف التي يذكرها بعض المفسرين الذين يُعنون بالجوانب البلاغية، والله تعالى أعلم، قد يكون هكذا وقد لا يكون، لكن هذه أشياء مستنبطة لا يقطع بها.

وقوله تعالى: {رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] أي: هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي} [سورة الكهف(٨٢)] أي: لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر -عليه السلام- مع ما تقدم من قوله: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)].

قال: وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر، هذا كما سبق أنه قال: {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [سورة الكهف(٦٥)] والحديث أيضاً لموسى -عليه الصلاة والسلام-: ((إنك على علم من الله ليس عندي أو لا أعلمه، وإني على علم من الله لا تعلمه))[١٥].

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الخضر قال: ((إنما سمي خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من تحته خضراء))[١٦] ورواه أيضاً عن عبد الرزاق.

وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة، فإذا هي تهتز من تحته خضراء))[١٧].

والمراد بالفروة هاهنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق، وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

في البخاري في أحاديث الأنبياء، في باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام-: ((فإذا هي تهتز من خلفه خضراء))[١٨] وعند أحمد في رواية: ((تهتز تحته خضراء)) وفي رواية قال: ((تهتز خضراء))[١٩] والمقصود بالفروة بعضهم يفسرها بهذا وبعضهم بهذا، بعضهم يفسرها: بالحشيش اليابس، فلما جلس عليها تحولت إلى خضراء، وبعضهم يفسرها بالأرض اليابسة، ليس فيها نبات، فتحولت إلى خضراء، يعني: أنبتت، وهذه كرامة من الله -عز وجل-، هذا سبب تسميته بالخضر.

وقوله: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل، قال: {تَسْطِع} وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً، فقال: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٧٨)] فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] وهو الصعود إلى أعلاه {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف(٩٧)] وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم.

---

١٥ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: {فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً} [الكهف: ٦٣] (٦/ ٩١- ٤٧٢٧).

١٦ - أخرجه أحمد (١٣/٤٧٤-٨١١٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/٤٦٦).

١٧ - اللفظ الذي في البخاري: ((فإذا هي تهتز من خلفه خضراء)) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (٤/ ١٥٦- ٣٤٠٢).

١٨ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى -عليهما السلام- (٤/ ١٥٦- ٣٤٠٢).

١٩ - أخرجه أحمد (١٣/ ٥٣٤- ٨٢٢٨) ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الترمذي (٣١٥١)، وابن حبان (٦٢٢٢)، والبغوي في تفسيره ٣/١٧٢ وانظر (٨١١٣).

فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة، ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى -عليه السلام.

وهم الذين دخلوا الأرض المقدسة معه بعد موسى -عليه الصلاة والسلام-، فالشاهد أن الغلام أو الفتى أو يوشع بن نون -عليه السلام- لم يكن هو المعنيّ بذلك؛ فتُرك ذكره، وأما ما ورد عن بعض السلف من أنه

خلد ووضع في سفينة، وسارت به في البحر، فهي تسير به إلى يوم القيامة هذا الكلام كله لا أساس له من الصحة، ولا يعول عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٣)

من قوله تعالى"ويسألونك عن ذي القرنين" الآية ٨٣ إلى قوله تعالى"وقد أحطنا بما لديه خبرا" الآية ٩١

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} [سورة الكهف:٨٣-٨٤].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَيَسْأَلُونَكَ} يا محمد {عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ} أي: عن خبره، وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقوله {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ} أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا متمكنًا، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك، من التمكين والجنود، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

وقوله: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعني علمًا.

وقال قتادة أيضًا في قوله: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقد قال الله في حق بلقيس: {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} [سورة النمل:٢٣] أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألونهم،** الرواية الواردة في هذا لا تصح، وذو القرنين: العلماء مختلفون كثيراً في تحديده، فبعضهم يقول: هو الإسكندر الذي بني الإسكندرية، وبعضهم يقول: بل كان رجلاً قبله، كان ذو القرنين رجلاً قبل الإسكندر الذي بني الإسكندرية يقال له: الإسكندر أيضاً، قالوا: هما اثنان، فالإسكندر الذي بني الإسكندرية قالوا: إن هذا ليس بمؤمن، وإنه تلميذ لأحد الفلاسفة الكبار، بل قالوا: إن ذلك الفيلسوف كان وزيراً له، وقالوا: إن المقصود بذي القرنين هو

إسكندر آخر كان زمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وبعض هؤلاء يقول: إن الخضر كان وزيراً له، وإنه مؤمن، وهذا ظاهر في هذه الآيات، ولكن متى كان ومن هو؟، أقوال المفسرين كثيرة في هذا، ولم يرد في تحديده شيء لا في الكتاب ولا في السنة الصحيحة، والذين قالوا: إنه الإسكندر الذي بني الإسكندرية قالوا: لا يشكل على هذا أنه تلميذ للفيلسوف أرسطو، فإنه قد يكون أخذ ما عنده من الصواب فإن علوم الفلاسفة ليست مردودة بعمومها، بل فيها علوم صحيحة مثل الطب والهندسة والرياضيات، والجبر، وما أشبه هذا، وهي من أصح علومهم، وأما علومهم الأخرى في الإلهيات فهم من أضل الناس في هذا الباب، وفي هذا كثير، يمكن أن يراجع فيه المطولات، والله تعالى أعلم.

والحافظ ابن كثير -رحمه الله- في البداية والنهاية ذكر كلاماً كثيراً في أقوال أهل العلم في تحديده يمكن أن يراجع، وكذلك بعض المفسرين مثل الشوكاني في فتح القدير.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **إنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.** وبعضهم يقول غير هذا، بعضهم يقول: لأن له ضفيرتين، والضفائر يقال لها: قرون، وبعضهم يقول: لأنه دعا قومه إلى الله ونهاهم عن الإشراك، فشجوه على قرنه الأيمن، ثم دعاهم مرة أخرى فشجوه على قرنه الأيسر، فقيل له ذلك، وبعضهم يقول غير هذا، فيذكرون أقاويل كثيرة غير متفقة، **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [سورة النساء:٨٢]، كل ذلك مما تُلقي عن بني إسرائيل، وكذبهم كثير، ولا يعتمد على كلامهم، حتى إنهم يذكرون أقوالاً عجيبة غريبة لا يمكن أن تتفق مع غيرها من الأقوال المذكورة فلا يُطوَّل في هذا؛ لأنه لا طائل تحته.

وقوله: **{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، نقل هنا عن جماعة من السلف -رضي الله عنهم- قال: **يعني علماً،** يعني علم ما يحتاج إليه، العلم الذي يتوصل به إلى مطلوبه في كل شأن من الشئون التي أعطاه الله -عز وجل- إياها، وهذا يدل على التمكين والقوة، فالله -تبارك وتعالى- أعطاه من أسباب القوة والغلبة والمعرفة بالحرب، وعدتها، والممالك وما يقام به الملك، وما يحصل به قهر الأعداء إلى غير ذلك من الأمور التي يحتاج إليها، **{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، مما يقوم به سلطانه وتتحصل له به الغلبة على غيره، وقول من قال هنا: يعني علماً، يرجع إلى هذا، وهكذا قول من قال: أي منازل الأرض وأعلامها، فهذا عائد إليه وهو شيء مما أعطاه الله -عز وجل- إياه، معرفة المحال والمسالك والممالك والطرق التي يتوصل بها إلى ما يريد، كل هذا مما أعطاه الله -عز وجل- إياه ومكنه منه، أعطاه من أسباب القوة الشيء الكثير، فصار سلطانه شاسعاً واسعاً.

يقول: **وهكذا ذو القرنين يسَّر الله له الأسباب، أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم، والرساتيق،** المقصود بالرساتيق هي الموضع أو المكان الذي تجتمع فيه الدور والبيوت، أو تجتمع فيه الزروع والحروث، يقال لها: رساتيق، **والبلاد والأراضي وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك، قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا،** ما يحتاج إليه مثله، هنا **{وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، فمِن هنا ممكن أن تكون تبعيضية، **{مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}**، من كل شيء مما يحتاج إليه مثله، أما ما لا يحتاج إليه مثله فلم يُعطَ له، وأوضح من هذا ما قاله الله -عز وجل- في ملكة سبأ: **{وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ}** يعني: مما يصلح لملكها، ولم

تُؤتَ ملك سليمان -عليه الصلاة والسلام-، وأضح من هذا قوله -تبارك وتعالى- في البيت: {يجبى إليه ثمرات كل شيء} يعني مما جرت العادة في جلبه للبيت، فكل هذا مما يسميه الشاطبي من العموم الاستعمالي، المعنى أنه لا يحيط بجميع الأفراد، فإذا دخلت "من" فهي للتبعيض فلا يرد السؤال أنه أوتي كل الأسباب مثلاً للقوة، قد يقول قائل: ما أوتي مثلاً الطائرات، والمراكب الحديثة، والأسلحة الحديثة، يقال: مما يصلح لمثله، آتاه الله {مِن كُلِّ شَيْءٍ}، فمِن وإن كانت تبعيضية، لكن أيضاً في نوع من العموم، {مِن كُلِّ شَيْءٍ} فكل من أقوى صيغ العموم، {مِن كُلِّ شَيْءٍ} معناها من كل لون من ألوان القوة والتمكين والمعرفة والعلم آتاه الله -عز وجل- منه، ولم يُؤتَ من كل الأسباب الموجودة اليوم، لكن يقال: مما يصلح لمثله، فهذا هو الذي يقال له: العموم الاستعمالي، لمّا تقول لإنسان تخاطبه: الله -عز وجل- قد أعطاك كل ما تريد فإذا كان هذا الإنسان لا يفهم، فإنه سيقول لك: لا، ما أعطاني كذا، وما أعطاني كذا، ما أعطاني ملكاً مثلاً، نقول: أعطاك كل ما تريد مما يصلح لمثلك، أو مما يُعطَى أمثالك وهكذا، الوالد يقول لولده: أعطيناك كل ما تريد، ما يقول له: ما أعطيتني كذا وكذا وكذا، ما أعطيتني مثل لباس أختي، لا يَفهمُ أن المراد ما يصلح لمثله.

قوله: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [سورة الكهف:٨٥-٨٨].

قال ابن عباس: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} **يعني: بالسبب المنزل، وقال مجاهد:** {فَأَتْبَعَ سَبَبًا}: **منزلا وطريقًا ما بين المشرق والمغرب.**

وفي رواية عن مجاهد: {سَبَبًا} **قال: طريقاً في الأرض.**

وقال قتادة: أي أتبع منازل الأرض ومعالمها.

أصل السبب هو الحبل، {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ} [سورة الحج:١٥]، فالسبب هو الحبل، واستعير ذلك وصار يقال لكل ما يتوصل به إلى غيره، فالحبل يتوصل به مثلاً إلى الماء في البئر، وقيل ذلك لما يتوصل به إلى غيره، {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} [سورة غافر:٣٦]، ثم فسرها {أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى} [سورة غافر:٣٧]، أسباب السماوات يعني الطرق الموصلة إليها، {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى}، فأوتي من كل شيء سبباً أي: يتوصل به إلى مطلوبه، ويدخل في هذا إذا كان يريد أن يغزو قوماً يعرف أحسن الطرق الموصلة إلى ذلك، ولا يحتاج أن يسأل، وعنده من القُدَر والإمكانات والسلاح والأعوان ما يستطيع أن يتوصل به إلى المطلوب، ولا يحتاج إلى الاستعانة بآخرين من أجل تحقيق هذا المطلب، وهكذا في كل شأن يريده، أوتي من كل شيء سبباً، فعنده الأموال والجيوش والسلاح وحسن التدبير والإدارة، إلى غير ذلك مما يحصل به الغلبة والظهور، فتقول: هؤلاء أعطاهم الله -عز وجل- من أسباب القوة والتمكين، فالله -تبارك وتعالى- أعطاه من كل شيء سبباً، {فأتبع سبباً}.

وقوله: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ} **أي: فسلك طريقًا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره**

أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدّة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه.

العين تطلق على ينبوع الماء في اللغة، والينبوع هو الماء الكثير، ومن ثم قال بعض أهل العلم: يصح إطلاقه على البحر بهذا الاعتبار، أي الماء الكثير، {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} وإذا قلنا: بمعنى حارة، أو بمعنى حمئة أي متغيرة كما سيأتي، قالوا: فإن قاع البحر متغير وأسود، فلما وصل إلى أقصى المغرب فإن وراءه البحر المحيط، محيط الأطلسي، فالذي يقف على شاطئ البحر يرى الشمس إذا غابت كأنها تقع في البحر، فمن فسره بالبحر -كما قال ابن كثير هنا- قال: هذا هو المراد، {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}، وصل إلى نهاية اليابسة في الغرب فوقف على البحر فرأى الشمس وهي تغرب كأنها تقع في هذا البحر، ومن فسره بما هو أخص من هذا أن العين هي ينبوع الماء المعروف، وليس المقصود أن جرم الشمس يقع في هذا المكان، وإنما ما يراه الناظر في الماء من انعكاس صورة الشمس، لكن هذا قد يرد عليه شيء من الإشكال، إلا إن كان شيئاً كثيراً بحيث يقف الإنسان دونه فيرى الشمس وهي تغرب كأنها تنزل فيه، أما من يقف على عين ليست بكثيرة المياه فإنه قد لا يرى مثل هذا، الشمس تغرب بعد ذلك، لقرب اليابسة بعدها، وبعضهم يقول غير هذا، ولكن ليس المقصود في هذه الأقوال جميعاً أن نفس الشمس تنزل في هذه العين حقيقة؛ لأن الشمس كما هو معروف تجري وتدور، فإذا غابت من جهة الغرب ظهرت على الجهة الأخرى وهكذا، ثم ترجع، وتدور، {والشمس تجري لمستقر لها}، ولهذا يقول ابن كثير -رحمه الله-: **انتهى إلى ساحله، كأنها تغرب فيه وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه، لا تفارقه**، بمعنى أنها في منزلتها في السماء، ما تنزل عنها ثم تنحدر وتقع في العين أو في البحر، وإنما هي في نفس مستوى الارتفاع، لكن يراها الناظر من بعيد كأنها نزلت في الماء، كأنها نزلت في البحر إذا وقف الإنسان على الشاطئ، هذا المقصود مما يتناهى عنده النظر، والأرض كروية فإذا ذهبت الشمس من الناحية الأخرى يراها الإنسان كأنها تنزل في الماء.

والحمئة مشتقة -على إحدى القراءتين- من "الحَمَأة" وهو الطين، كما قال تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}.

يعني {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ}، أي: طين، الطين المتغير، متغير اللون ومتغير الرائحة يقال له ذلك، وهناك قراءة متواترة قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي {حامية}، وقرأ الآخرون بـــ{حَمِئَةٍ}، {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} أي: منتنة متغيرة، والقراءة الأخرى {وجدها تغرب في عين حامية} يعني: حارة، وإذا كان للآية قراءتان وكل ذلك يرجع إلى ذات واحدة فإن هذا يكون من باب الزيادة في صفة تلك الذات، هنا ذات واحدة وهي العين، تارة قال: {حَمِئَةٍ}، وفي القراءة الأخرى: {حامية}، وتنوع القراءات ينزل منزلة تعدد الآيات، فإن كان ذلك يعود إلى ذات واحدة فهو من باب الزيادة في الصفة لها، أو الحكم لهذه الذات، كما قال الله -عز جل- في حكم الأرجل في الطهارة في الوضوء: {وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ} [سورة المائدة:٦]، وفي القراءة الأخرى {وَأَرْجُلَكُمْ}، فهنا القراءتان تعودان إلى ذات واحدة وهي الرِّجل، فهذا

من باب الزيادة في الحكم أو الصفة لهذه الذات، فالرِّجل تارة تكون ممسوحة، وتارة تكون مغسولة، فقراءة المسح –أي بالجر- إذا كان على الرجل الجورب أو نحو هذا، وقراءة النصب تكون إذا كانت الرجل مجردة من ذلك، يعني تدل على حكم الغسل، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ} [سورة البقرة:٢٢٢]، وفي القراءة الأخرى بالتشديد {وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يطَّهرن}، يعني يتطهرن، فدلت القراءة الأولى {يَطْهُرْنَ} على انقطاع الدم، ودلت القراءة الثانية على الاغتسال، وكل ذلك يرجع إلى ذات واحدة وهي المرأة، فيكون من باب زيادة الحكم لهذه الذات، فهنا نفس الشيء، {حَمِئَةٍ} و{حامية}، فكل هذه الأوصاف حاصلة فيها، وقراءة {حَمِئَةٍ} هي التي نقرأ بها وهي قراءة أهل المدينة، وبها قرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، قراءة حفص عن عاصم وغير هؤلاء السبعة {وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ} مثل القراءة التي نقرأ بها.

كما قال تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [سورة الحجر:٢٨] أي: طين أملس. وقد تقدم بيانه.

وقوله: {وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا} أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم.

وقوله: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}.

أمة عظيمة: هذا كله مُتلقى عن بني إسرائيل، لكن يمكن أن يؤخذ هذا من جهة اللفظ، لكنه لا يقطع به؛ لأن التنكير أحياناً يكون للتعظيم، أحياناً، كقوله تعالى مثلا: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الصف:١٠]، أي تجارة عظيمة، {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ} [سورة الصف:١٣] أي: نصر عظيم من الله، وتارة يدل على التحقير، التنكير أحياناً يدل على التحقير، وتارة لا يدل على هذا ولا هذا، {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى} [سورة القصص:٢٠] جاء رجل، والبعض قد يتكلف في هذا فيقول: {وَجَاء رَجُلٌ} أي: رجل عظيم، {مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى}، ولا حاجة لمثل هذا، إنما هو إخبار أن رجلاً جاء من أقصى المدينة يقول كذا وكذا.

وقوله: {قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا} معنى هذا: أن الله تعالى مكنه منهم وحكّمه فيهم، وأظفره بهم وخيّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه.

في قوله: {أَمَّا مَنْ ظَلَمَ} أي: من استمر على كفره وشركه بربه {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ} قال قتادة: بالقتل.

وقوله: {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا} أي: شديدًا بليغًا وجيعًا أليمًا، وفيه إثبات المعاد والجزاء.

كأنه فهم أنه يعذب بالقتل لأنه ذكر بعده: {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ}، ولكن هذا ليس بلازم، ولا يدل على القتل قطعاً، قد يعذبه ثم يرد، فإن"ثم" تدل على التعقيب والتراخي، يعذب بعد ذلك لمّا يموت يرد إلى ربه، لكن لو أنه قال مثلاً: فسوف نعذبه فيرد إلى ربه، كان هذا أقرب وإن كانت أيضاً هذه ليست بقاطعة، فالفاء للتعقيب المباشر، ويمكن أن يقال أيضاً: إن تعقيب كل شيء بحسبه، وسبق الإشارة إلى هذا، {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً} [سورة المؤمنون:١٤]، مع أن بينهما أربعين يوماً، {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [سورة الرعد:١٧]، فلا

تسيل الأودية بمجرد نزول المطر، وإنما حتى يجتمع الكثير منه فتسيل الأودية؛ لأنه يحتاج وقتاً، وهكذا {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً} [سورة الحج:٦٣] يحتاج إلى وقت أيضاً.

وقوله: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ} أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى} أي: في الدار الآخرة عند الله -عز وجل-، {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} قال مجاهد: معروفًا.

بعضهم يقرأ {فله جزاءُ الحسنى} من غير تنوين وبالرفع، أي: جزاءُ الخصلة الحسنى أو الفعلة الحسنى، وتكون الإضافة هنا مثل دار الآخرة، تكون من باب إضافة الموصوف إلى صفته، {جزاءُ الحسنى}، وتكون الحسنى من باب الصفة، لكن على قراءة التنوين {فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى}، فهنا قطع عن الإضافة، وتكون {الْحُسْنَى} أي الجنة، {جَزَاءً الْحُسْنَى} أي: في الدار الآخرة عند الله -عز وجل-، والقراءتان متواترتان.

وقوله: {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} **قال مجاهد: معروفاً**، وهذا تقريب للمعنى، {وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} أي القول الحسن الطيب الذي يوصف بذلك، {وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} [سورة الإسراء:٢٣] يعني: الكلام الذي يحصل به إبهاج النفوس وإسعادها، فيكون محبباً إليها.

قول تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} [سورة الكهف:٨٩-٩١].

يقول تعالى: ثم سلك طريقًا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله -عز وجل-، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: {وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ} أي: أمة، {لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا} أي: ليس لهم بناءٌ يكنّهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس.

وقال قتادة: ذكر لنا بأنهم بأرض لا تُنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

وقوله: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا} قال مجاهد، والسدي: علمًا، أي: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: {لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ}.

وقوله: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} يعني: أنه مطلع على أحواله، وأحوال جيشه وما إلى ذلك، وبعض أهل العلم كابن جرير يقول: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ} يعني بما هنالك مما وصل إليه من مطلع الشمس، من أحول تلك الناحية، أولئك القوم، بما عنده مطلع الشمس، يعني لا يخفى علينا مما هنالك من الخلق وأحوالهم، يعني لمّا وصل إلى مطلع الشمس وجد عندها قوماً لم يجعل الله -عز وجل- ما يكنّهم ويسترهم، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}، يعني أحطنا بما هنالك بما لديه مما وصل إليه من هؤلاء الناس ومحالهم أن الله أحاط بهم، ولا يخفى عليه من خلقه خافية، والآية إذا كانت تحتمل معنيين أو أكثر ولا يوجد ما يمنع من حمل الآية على هذه المعاني فيمكن أن تحمل الآية عليها جميعاً، أحاط بما لديه: بما عنده، بأحواله كلها، وبأحوال الخلق جميعاً، وأولئك الذين وصل إليهم، تلك المحال البعيدة الله -تبارك وتعالى- عالم

بهم، وهو الذي أحاط علمه بكل شيء، وجائز أن يكون لما أعطاه الله من كل شيء سبباً، هذه القُدر والإمكانات أن يكون حينما وصل إلى أقصى الغرب أنه طاف في الأرض من الناحية الثانية حتى وصل إلى المشرق، وجائز أن يكون قد رجع حتى وصل إلى مشرقها، فإن الله أخبر أنه قد أعطاه من كل شيء سبباً، يحتمل هذا، والعلم عند الله -عز وجل-، ولا يوجد ما يمنع من ذلك، إذا كان أعطاه الله من كل شيء سبباً فهو عنده معرفة بالطرق، وعنده من الإمكانات ما يوصله إلى مطلوبه، ونحن لا نقيس الناس على ما نتصور أو نتخيل قبل ثلاثمائة سنة، أو أربعمائة سنة، أو خمسمائة سنة من مراكب الناس البسيطة وإمكاناتهم وعلومهم، وأنهم لم يكتشفوا كذا إلا سنة كذا، هذا الكلام فيه نظر، يعني الأهرام التي تحير فيها العلماء، وكثير منهم يقول: إنها كانت قبل الطوفان؛ لأنها لو كانت بعد الطوفان لكان عندنا من الخبر بمن بناها، تواتر ذلك وعرف، فالشاهد أنها بهذه الطريقة إلى الآن والناس يتحيرون بها، ويعجبون منها، ومما فيها ومن طريقة بنائها، يعني ممكن أن تبنى هذه بدون معرفة وبدون آلات، وإذا نظرت إلى آثار الممالك المشيدة وما وصف من أرض عاد التي قال الله -عز وجل- فيها: **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** [سورة الفجر:٨]، حتى قال بعض المفسرين: بنوا مدينة لبنة من ذهب ولبنة من فضة ونحو ذلك، قد لا يكون هذا كذلك، لكن الله -عز وجل- حينما وصفها بهذه الصفة **{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}**، وبقايا وآثار وأشياء لا زال بعضها إلى اليوم، آبار قريبة من أطراف الجزيرة العربية، آبار منحوتة نحتاً دقيقاً في مناطق صخرية عميقة في غاية العمق، حتى إن بعضهم يقول: إن هذا مما حفرته الجن لسليمان -عليه الصلاة والسلام-، فالله أعلم، فالشاهد هناك إمكانات وأشياء، ديار ثمود انظر إلى الآن بقية تلك الديار، كيف نقروا الجبال ونحتوها، ولم يكتفوا بهذا بل زينوها غاية التزيين، وجعلوا عليها من الصور والرسوم والملاسة وما أشبه ذلك حتى صارت كأنها مصنوعة إلى اليوم باقية إلى هذا العصر، والناس لا يفعلون هذا في عصرنا هذا، لا يفعلون في بيوت كل واحد منهم، فمعنى هذا أن عندهم إمكانات قوية، يعني قد يفعل هذا في مكان، يفعله واحد ملِك لأمر من الأمور، لكن بيت كل واحد بهذه الطريقة، وبهذا النقش، والناس يطيقون؟ لا يطيقون هذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٤)

من قوله تعالى"ثم أتبع سببا" الآية ٩٢ إلى قوله تعالى"وكان وعد ربي حقا" الآية ٩٨

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيما يتعلق بما أشرت إليه في الكلام على تسمية ذي القرنين؛ ولماذا قيل له ذلك؟ يصلح نموذجاً للأقوال التي يذكرونها والتي لا يمكن أن تتفق.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الشوكاني -رحمه الله تعالى- في كتابه فتح القدير:

واختلفوا في ذي القرنين اختلافاً كثيراً، فقيل: هو الإسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا بأسرها، اليوناني باني الإسكندرية، وقال ابن إسحاق: هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح، وقيل: هو ملك اسمه هرمس، وقيل: ملك اسمه هردبس، وقيل شاب من الروم، وقيل: كان نبياً، وقيل: كان عبداً صالحاً، وقيل: اسمه عبد الله بن الضحاك، وقيل: مصعب بن عبد الله من أولاد كهلان بن سبأ.

وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال: إن الظاهر من علم الأخبار أنهما اثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم -عليه السلام-، والآخر كان قريباً من عيسى -عليه السلام-، وقيل: هو أبو كرب الحميري، وقيل: هو ملك من الملائكة، ورجح الرازي القول الأول، قال: لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليوناني، كما تشهد به كتب التاريخ، قال: فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: وفيه إشكال؛ لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم، وكان على مذهبه، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق؛ وذلك مما لا سبيل إليه.

قال النيسابوري: قلت ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلاً، فلعله أخذ منهم ما صفا، وترك ما كدر، والله أعلم.

أرسطاطاليس: يعني أرسطو.

ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدمنا ذلك، وبين أن الأول طاف بالبيت مع إبراهيم -عليه السلام- أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان وزيره الخضر، وأما الثاني: فهو الإسكندر المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راوياً له عن الأزرقي وغيره.

ثم قال: وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية.

وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا -يعني: أنهما اثنان-؛ لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد، وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر، فيقع بذلك خطأ كبير، وفساد كثير، كيف لا؟! والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً، ووزيره الخضر، وقد قيل: إنه كان نبياً، وأما الثاني: فقد كان كافراً ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف، وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة، فأين هذا من هذا؟! انتهى.

قلت: لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه، والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما اثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم، لا كما ذكره الرازي، وادعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ، وقد وقع الخلاف هل هو نبي أم لا؟ وسيأتي ما يستفاد منه المطلوب آخر هذا البحث -إن شاء الله.

وأما السبب الذي لأجله سمي ذا القرنين فقال الزجاج والأزهري: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مطلعها، وقرن الشمس من مغربها، وقيل: إنه كان له ضفيرتان من شعر، والضفائر تسمى قروناً، ومنه قول الشاعر:

فلثَمتُ فاها آخذاً بقرونها *** شُرْبَ النزيف ببرْد ماءِ الحشرج

والحشرج: ماء من مياه العرب، وقيل: إنه رأى في أول ملكه كأنه قابض على قرني الشمس فسمي بذلك، وقيل: كان له قرنان تحت عمامته، وقيل: إنه دعا إلى الله فشجه قومه على قرنه، ثم دعا إلى الله فشجوه على قرنه الآخر، وقيل: إنما سمي بذلك لأنه كريم الطرفين من أهل بيت شرف من قبل أبيه وأمه، وقيل: لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس وهو حي، وقيل: لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعاً، وقيل: لأنه أُعطي علم الظاهر والباطن، وقيل: لأنه دخل النور والظلمة، وقيل: لأنه ملك فارس والروم، وقيل: لأنه ملك الروم والترك، وقيل: لأنه كان لتاجه قرنان.

وقال الله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [سورة الإسراء(٣٦)] وقال: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [سورة النساء(٨٢)] هذا كله من كذب بني إسرائيل، وتحريفهم، فيأتون بالأقوال المتناقضة، ولو أن الإنسان وقف عند حد ما يعلم ما كان قال واحد: إنه ملك، والثاني يقول: نبي، والثالث يقول: كافر، وهكذا هذا التناقض في سبب التسمية: أخذ بقرني الشمس، أو برؤيا، أو كان له ظفيرتان، أو من جهة نسبه، أو من جهة كذا، هذه الأقوال لا يمكن أن تتفق، ولا حاجة بنا لها؛ لكن أردت أن أذكرها كنموذج للجرأة والكذب عند هؤلاء الإسرائيليين، وتلفيق الأخبار، واختلاق مثل هذه الأمور.

وقال صاحب المصباح المنير في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُواْ يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكّنّي فِيهِ رَبّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [سورة الكهف(٩٢-٩٦)] يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين: {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا} [سورة

الكهف(٩٢)] أي: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان متناوحان، بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج، على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم -عليه السلام- كما ثبت في الصحيحين: ((إن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذٍ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج))[1].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [سورة الكهف(٩٣)] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "حتى إذا بلغ بين السدين، وهما جبلان متناوحان". متناوحان: أي متقابلان.

وقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ} [سورة الكهف(٩٣)] قرأه ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالفتح {بَيْنَ السَّدَّيْنِ} [سورة الكهف(٩٣)] وقرأه الباقون بالضم {السُّدين} وبعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- يقول بأن القراءتين بمعنى واحد، وأن السَّدين والسُّدين كليْهما بمعنى واحد، فهما لغتان، وكثير من أهل العلم يفرقون بينهما، فبعضهم يقول: الفرق أن كل ما كان حجزاً بينك وبين غيرك فهو سَد، وما كان متراكماً، أي: أن بعضه على بعض فهو ردم، كما سيأتي في قوله: {رَدْمًا} [سورة الكهف(٩٥)]، وبعض أهل العلم يقول: كل ما كان أمامك يحجز ما بعده عما قبله فإنه بالضم، يقال له: سُد، ويثنّى على السُّدين، وبعضهم يقول: ما رأته العيون -بمعنى أنه شيء حسي- فهو بالضم، وما كان معنوياً -كالذي يكون على الأبصار كالغشاوة- فإنه يكون بالفتح أو العكس، وبعضهم يقول بأن الذي يكون بخلق الله خلقة كالحاجز من جبل ونحو ذلك فهو بالضم، سُد أي مسدود، وما كان من فعل الإنسان فهو بالفتح، والله تعالى أعلم.

على كل حال ابن جرير - رحمه الله - يقول: هما لغتان، والذين ذكروا هذه الفروقات هم من أئمة اللغة.

{وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [سورة الكهف(٩٣)] أي: لاستعجام كلامهم، وبعدهم عن الناس.

في قوله: {وَجَدَ مِن دُونِهِمَا} [سورة الكهف(٩٣)] بعضهم يفسره أي: من ورائهما، وبعضهم يقول: أي أمامهما، وقوله: {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا} [سورة الكهف(٩٣)] قرأه بعض السبعة كحمزة والكسائي: يُفقِهون، أي: يُفهِمون، من أفقهَ إذا أبان عما في نفسه، لا يكاد يُفقه، يعني: لا يكاد يُبين لعجمته، لا يُفهم قولهم وكلامهم، وقرأه الباقون: {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ} [سورة الكهف(٩٣)] أي: لا يكادون يفهمون.

---

١ - أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب {وترى الناس سكارى} [الحج: ٢] (٦/٩٧- ٤٧٤١) وفي غيره من الأبواب، ومسلم في كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (١/ ٢٠١ – ٣٧٩) (٢٢٢).

وكما سبق في القراءات أنها إذا تعددت وعادت إلى ذات واحدة فإن ذلك من تعدد الأوصاف لهذه الذات، فهؤلاء دلت القراءة الأولى (يُفقهون) على أنهم لا يُبينون، ودلت القراءة الثانية (يَفقهون) على أنهم لا يفهمون، وهذا لاستعجام كلامهم، فالسامع لا يكاد يفهم، وهم أيضاً كذلك.

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا} [سورة الكهف(٩٤)] **قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}** [سورة الكهف(٩٥)] **أي: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان -عليه السلام-: {أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم}** [سورة النمل(٣٦)] **الآية، وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي: بعملكم وآلات البناء {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا* آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ}** [سورة الكهف(٩٥-٩٦)] **والزبر: جمع زبرة، وهي القطعة منه، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة، وهي كاللبنة، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي، أو تزيد عليه.**

في قوله: **{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا}** [سورة الكهف(٩٤)] مفسدون في الأرض، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: مفسدون في الأرض: تحمل على أعم معانيها ولا حاجة لتخصيص ذلك بنوع من الإفساد، كما يقول بعضهم: إنه إذا ظهر الربيع مثلاً في أرض هؤلاء عدا عليهم هؤلاء فلم يبقوا لهم خضراء، وغير ذلك من الأقاويل التي تذكر، هم مفسدون في الأرض بالقتل، والتعدي على الناس في أموالهم إلى غير ذلك مما يتصور من ألوان الإفساد.

{مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا} [سورة الكهف(٩٤)] وقرأه الكوفيون: خراجاً، وبعض أهل العلم يقول بأن الخرج والخراج بمعنى واحد، وبعضهم يفرق بينهما في المعنى، وبعضهم يقول: إن الخراج هو الاسم، والخَرج هو المصدر، وبعضهم يقول: الخراج ما يجعل على الأرض، والخرج ما يجعل على الرقاب مثل الجزية.

وبعضهم يقول: **{فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا}** [سورة الكهف(٩٤)] يعني: كالأجرة، أو ما يجعل لمن عمل عملاً أو نحو ذلك من العطاء، وأما الخراج فإنه ما يُجعل على الأرض، والله -عز وجل- ذكر هذا وهذا، فهذا يدل على أنهم أرادوا شيئاً واحداً، والله -تبارك وتعالى- أعلم.

فهل نجعل لك خرجاً أو خراجاً؟ المقصود به: أنهم عرضوا عليه أن يعطوه أجرة على هذا العمل، فترفّع عن ذلك وتعفف، وقال: ما آتاني الله خير من هذا الذي تجعلونه لي، كما قال سليمان -عليه الصلاة والسلام.

وقوله -تبارك وتعالى- عن قول ذي القرنين: **{أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}** [سورة الكهف(٩٥)] هناك قال: سداً وهنا قال: ردماً، والمعنى متقارب، الردم والسد هو كل ما يحجز بين شيئين فإنه يقال له ذلك، وبعضهم يفرق بينهما كما سبق، فيقول: كل ما حجز بين شيئين فهو سد، وما كان بعضه على بعض فهو ردم، إن كان مبنياً من الحجارة أو اللبن أو غير ذلك فهو ردم، والسد يمكن أن يكون بقطعة واحدة بخشبة أو بحديدة، أو نحو ذلك، والعلم عند الله -عز وجل.

قال: {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} [سورة الكهف(٩٦)] يقول: جمع زبرة، وهي القطعة منه، وبعضهم قيده بالقطعة العظيمة، وهذا الذي ذهب إليه الخليل بن أحمد -رحمه الله-، زُبر الحديد يعني: القطع العظيمة من الحديد، فيجعل ذلك بمنزلة اللبن، يضع هذه القطع على بعض، ثم بعد ذلك يوقد عليها، وهي كاللبنة، يقال: كل لبنة زنة قنطار بالدمشقي أو تزيد.

{حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} [سورة الكهف(٩٦)] **أي: وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال.**

إذا ساوى في الصُّدُفين: في قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي عمرو بالضم، ضم الصاد والدال الصُّدُفين، والصَّدَفين بالفتح يعني: بين رأسي الجبلين، أو بين جانبي الجبلين، وإذا تحاذى الجبلان فكأنهما تصادفا أو تلاقيا، فيقال لذلك: صدفان، يعني: ساوى بين طرفي أو بين ناحيتي أو بين جانبي الجبلين إلى رءوسهما.

{قَالَ انفُخُوا} [سورة الكهف(٩٦)] **أي: أجّجَ عليه النار حتى صار كله ناراً** {قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} [سورة الكهف(٩٦)] **قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسُّدي: هو النحاس، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى:** {وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} [سورة سبأ(١٢)] **ولهذا يشبه بالبرد المحبر.**

هذا قول جمهور المفسرين وأهل اللغة: إن القطر المقصود به النحاس المذاب، وبعضهم قال: إنه الحديد المذاب، وبعضهم يقول: الرصاص، لكن المشهور هو هذا، وهذا الذي يدل عليه القرآن، والله تعالى أعلم.

ثم قال الله تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف(٩٧-٩٩)] **يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج: أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله؛ ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال:** {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] **وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.**

روى الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: استيقظ النبي -صلى الله عليه وسلم- من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: ((لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها)) **قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:** ((نعم إذا كثر الخبث))[٢] **هذا حديث صحيح، اتفق البخاري ومسلم على إخراجه.**

قوله: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] كما سبق أن زيادة المبنى لزيادة المعنى؛ لما كان نقضه أصعب من الظهور عليه قيل: استطاعوا، وهذه من الأشياء التي تلحظ فتكون معينة على الحفظ، يعني مما يذكر في الحفظ أشياء مما يقويه ويثبته منها ملاحظة المعنى، وهذا له أمثلة كثيرة، فمن

---

٢ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج (٤/ ١٣٨- ٣٣٤٦) وغيره من الأبواب. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/ ٢٢٠٧- ١) (٢٨٨٠) وهو عند أحمد كما أشار المصنف (٤٥/٤٠٣- ٢٧٤١٣).

هذا إذا عرفت أن قوله في الأولى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ} [سورة الكهف(٩٧)] لأن الظهور أسهل، والثانية: {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [سورة الكهف(٩٧)] وهكذا في قول الخضر لموسى -عليه الصلاة والسلام-: {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} [سورة الكهف(٨٢)] بعد أن أخبره، وقبل أن يخبره قال: {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع} [سورة الكهف(٧٨)] فإذا لاحظت مثل هذه المعاني سهل عليك ضبط الحفظ، وهناك أشياء مفيدة تذكر أيضاً في هذا ، وذكر بعضها ابن المنادي في كتاب (متشابه القرآن).

وفي قوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: لما بناه ذو القرنين قال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: بالناس، ويحتمل أن يكون المعنى: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: هذا التمكين، والإشارة عائدة إلى ما حصل من تمكينه من بناء هذا السد، وإعانته عليه، قال: {هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] فلم ينسب ذلك إلى نفسه، وإنما تواضع لربه -تبارك وتعالى.

وابن جرير -رحمه الله- إذا نظرت في عبارته تجد أنه جمع بين المعنيين: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] حيث أعان عليه ويسره، وأيضاً هو رحمة بالناس الذين كانوا يلاقون ما يلاقون من هؤلاء القوم المفسدين.

وقوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: لما بناه ذو القرنين {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] أي: إذا اقترب الوعد الحق {جَعَلَهُ دَكَّاء} [سورة الكهف(٩٨)] أي: ساواه بالأرض، تقول العرب: ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} [سورة الأعراف(١٤٣)] أي: مساوياً للأرض.

هناك قال: {دَكًّا} وهنا قال: {دَكَّاء} على قراءة الكوفيين الثلاثة: حمزة وعاصم والكسائي، {جَعَلَهُ دَكَّاء} [سورة الكهف(٩٨)] وهذا يقال للناقة التي لا سنام لها: دكاء، فبعضهم يقول: هذا على وجه التشبيه لأن ذلك مذكر {جَعَلَهُ} [سورة الكهف(٩٨)] أي: السد {دَكَّاء} وهذه من صفة المؤنث، قالوا: هذا على وجه التشبيه بالناقة الدكاء، والقراءة الأخرى -قراءة بقية السبعة-: بالتنوين من غير همز {جَعَلَهُ دَكًّا}.

{وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [سورة الكهف(٩٨)] أي: كائناً لا محالة، وقوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} [سورة الكهف(٩٩)] أي: الناس يومئذٍ، أي: يوم يدك هذا السد، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس.

في قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} [سورة الكهف(٩٨)] هل المقصود به القيامة كما قال بعضهم؟ أو المقصود به إذا جاء الوعد الذي يحصل به انهدام هذا السد، فيخرج هؤلاء إلى الناس في آخر الزمان، قرب قيام الساعة؟ {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [سورة الكهف(٩٨)] ويكون قوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف(٩٩)] يعني: أن يأجوج ومأجوج ينطلقون فيفسدون ويختلطون بالناس بعد أن عُزلوا عنهم هذه المدة الطويلة {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [سورة الكهف(٩٩)] أي: بعد ذلك، ومعلوم أن أشراط الساعة تأتي متتابعة، سريعة الوقوع، ويكون بعدها قيام الساعة -النفخ في الصور-، فهذا هو الأقرب -والله أعلم-، وهو الذي تدل عليه الأحاديث الواردة في صفة خروج يأجوج ومأجوج.

وهؤلاء تكلم عنهم المفسرون، ونقلوا أشياء هي من قبيل الإسرائيليات، لا تصدق ولا تقبل بحال من الأحوال، بعضهم يقول: هم على قدر شبر، إذا كانوا على قدر شبر سيطؤهم الناس.

وبعض الناس في هذا العصر يقول بأنهم أهل الصين، وأن السد هو سد الصين، وهذا الكلام كله غير صحيح، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أنهم في كل يوم يحفرون، ثم يرجع السد إلى ما كان عليه، يقولون: إنهم سيكملونه في الغد، فإذا رجعوا إليه وجدوه أشد مما كان، حتى إذا أذن الله -عز وجل- بخروجهم قال القائم على عملهم: إن شاء الله، فيكملونه في اليوم الآخر، ويفتحونه ويخرجون، وهؤلاء إذا خرجوا حصل منهم هذا الإفساد العظيم، أما أهل الصين فإن هذا السد لا يحول بينهم وبين الناس، ولا يخرقون فيه كل يوم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج هكذا))[٣] فهل هذا ينطبق على سد الصين؟! إطلاقاً لا يمكن أن يقال هذا، وهل أهل الصين بهذه المثابة يفسدون في الأرض، ويفعلون هذه الأشياء كلها، ويشربون حتى البحيرة ولا يتركون شيئاً؟ ويختلطون بالناس، والناس يذهبون إليهم، والذي يسافر إلى الصين ذهب إلى يأجوج ومأجوج؟! فهذه أقوال عجيبة، وأين الآيات والأحاديث التي تدل على أن خروجهم شيء مهول وكارثة؟

على كل حال الذي يحمل هؤلاء على هذا الكلام هو أنهم يقولون: إننا في عصر وجدت فيه الأقمار الصناعية وغير الأقمار الصناعية، وما بقي موضع شبر من الأرض إلا عُرف، هاتان أمتان عظيمتان، فأين هم إذن؟ لابد أن يُعرفوا ويكتشفوا، ما عاد الناس مثل الأول، على جمل، نقول لهم: إذا شاء الله -عز وجل- أن يعمّي أمراً على الناس فلو كان أمام أعينهم ما رأوه، وهذا شيء مشاهد، وهذا أشرت إليه في بعض المناسبات، الإنسان أحياناً يبحث عن قلمه وهو أمامه، ويسأل ويفتش، ويبحث عن كتابه في كل مكان وهو أمامه، ولربما بحث عن نظارته وهو يلبسها ولا يترك محلاً إلا ويسأل عنها وهي على عينه، وهذه الأمة من بني إسرائيل أمة معهم موسى -عليه الصلاة والسلام- وتاهوا في صحراء صغيرة، لو اتجهوا من أي اتجاه في فترة وجيزة في أيام فسيخرجون منها، ومع هذا جلسوا فيها هذه المدة الطويلة.

فالله -تبارك وتعالى- إذا أراد شيئاً قال له: كن، فعمّي خبرهم على الناس، وما المانع من هذا ؟ وبعض من تكلم في هذا يقول: لهم أكثر من خروج، من أجل أن يجمع بين هذا وبين ما يحصل من الإفساد، طيب وأين السد الذي يحفرون فيه كل يوم؟ أين هو الذي يحول بينهم وبين الناس؟ وإذا كان لهم أكثر من خروج فما فائدة هذا السد إذاً؟ وهل أصلاً أهل الصين هم من هاتين القبيلتين من يأجوج ومأجوج؟ فمثل هذا كله لا يقبل، والله أعلم.

---

٣ - أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، ومأجوج (٤/ ١٣٨- ٣٣٤٦) وغيره من الأبواب. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (٤/ ٢٢٠٧- ١) (٢٨٨٠) وهو عند أحمد كما أشار المصنف (٤٥/٤٠٣- ٢٧٤١٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٥)

من قوله تعالى"وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض" الآية ٩٩ إلى قوله تعالى"وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا" الآية ١٠٦

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تتمة تفسير قوله تعالى: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف: (٩٩)] وقوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} أي: الناس {يَوْمَئِذٍ} أي: يوم يدك هذا السد، ويخرج هؤلاء، فيموجون في الناس، ويفسدون على الناس أموالهم، ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدي في قوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف: (٩٩)] قال: ذاك حين يخرجون على الناس، وهذا كله قبل القيامة وبعد الدجال، كما سيأتي بيانه عند قوله: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [سورة الأنبياء: (٩٦-٩٧)] الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف(٩٩)] هذا جاء بعد قوله: {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} [سورة الكهف(٩٨)].

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف: (٩٩)] الوعد يحتمل أن يكون المراد به القيامة، وأن الله -عز وجل- يجعل هذا السد دكا، كما يجعل كل ما على الأرض قاعاً صفصفا، فتكون مستوية {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [سورة طـــه: (١٠٧)]، فتُنسف الجبال وما عليها من العمران، ومن جملة ذلك أن هذا السد يزول، والقرينة التي قد يحتج بها من يفسر الآية بهذا أن الوعد هو القيامة، وأن الله -تبارك وتعالى- قال بعده: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا} [سورة الكهف: (٩٩ -١٠٠)].

لكن قوله: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} هل هو في القيامة، أو تركنا بعضهم يموج في بعض حيث يخرجون على الناس؟، فهذه قرينة تدل على أن هذا يكون في الآخرة، وقد قال الله -عز وجل-: {وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا} [سورة الأنبياء: (٩٧)]، ويقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [سورة فاطر: (٥)] فهذا الوعد الحق هو القيامة، ويحتمل أن يكون المراد به القيامة، فيختلط الإنس والجن يوم القيامة ويحشرون، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى.

والقول الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا أن ذلك قبل القيامة، {فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي} [سورة الكهف: (٩٨)] يعني: بخروجهم، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ

يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ} [سورة الأنبياء: (٩٦-٩٧)]، فهذا الوعد الحق المقصود به في الآية الثانية القيامة، فيكون المعنى في قوله: {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}، يعني بخروجهم، وانهدام هذا السد.

من أهل العلم من يقول: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ} أي: يأجوج ومأجوج يختلطون بالناس، بعد أن كانوا بمعزل عن الناس.

وبعض أهل العلم يقول: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}، يعني: يأجوج ومأجوج مع غيرهم من الناس، فيختلطون بهم ويحصل منهم ما يحصل من ألوان الإفساد في الأرض، وذلك من علامات القيامة الكبرى، ثم بعد ذلك ينفخ في الصور، والأول أقوى من هذا وأرجح

ومن أهل العلم من يقول: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}، لما وضع السد صار يأجوج ومأجوج بعضهم يموج في بعض خلف هذا السد، وهذا بعيد؛ لأن الله -عز وجل- يقول عن قول ذي القرنين {هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ} [سورة الكهف: (٩٨- ٩٩)]، فليس المقصود يومئذ يعني يوم بناء السد، وإنما ذلك يتعلق بما قبله، ذلك الحين الذي يأتي فيه وعده -عز وجل- ويتحقق يختلطون بغيرهم، فيحصل منهم الإفساد، وهذا هو الأقرب في تفسير الآية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} [سورة الكهف: (٩٩)] والصور كما جاء في الحديث: ((قرن ينفخ فيه))[1]، والذي ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام-، كما تقدم في الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة، وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما- مرفوعاً ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته واستمع متى يؤمر؟))، قالوا: كيف نقول؟ قال: ((قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا))[2].

وقوله: {فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا} [سورة الكهف: (٩٩)] أي: أحضرنا الجميع للحساب {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [سورة الواقعة: (٤٩-٥٠)]، {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف: (٤٧)].

قوله: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} يحتمل أن تكون هي النفخة الأولى؛ لأنها هي التي تكون بعد هذه الأمارات، بعد خروج يأجوج ومأجوج فينفخ عندئذ في الصور فتموت الخلائق، ويصعقون، ويحتمل أن تكون هذه هي النفخة الثانية، وهناك قرينة تدل على أنها النفخة الثانية وهي قول الله –عز وجل-: {فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}.

النفخة الثانية هي التي يكون بها جمع الخلائق، أما النفخة الأولى ففيها الإماتة، فيصعق من كان حياً ويموتون، ويمكن أن تكون هذه هي النفخة الأولى، وأن الله -تبارك وتعالى- ذكر ذلك على وجه الاختصار، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ} يعني: بعد يأجوج ومأجوج، فطوى الله -تبارك وتعالى- هذه المراحل، واختصر الكلام

---

[1] - رواه أبو داود، كتاب السنة، باب في ذكر البعث والصور (٣٧٨/٤)، برقم: (٤٧٤٤)، وصححه الألباني.

[2] - رواه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في شأن الصور (٦٢٠/٤)، برقم: (٢٤٣١)، وصححه الألباني.

اختصاراً فذكر ما يحصل بعد ذلك مما عليه المعوّل وهو جمع الناس، فإذا نفخ فعند ذلك تقوم القيامة، فذكر الله -عز وجل- مما يحصل فيها جمع الخلائق وحشر الخلائق وهذا بعد نفخة أخرى وهي نفخة البعث، فيكون ذكر نفخة الصعق، ولم يذكر نفخة البعث اختصاراً، وإنما ذكر ما يحصل من جمع الناس وحشرهم.

قوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} [سورة الكهف: (١٠٠-١٠٢)].

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم؛ أي يبرزها لهم ويظهرها؛ ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها؛ ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهمّ والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك))[٣].

قوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا}، بعض أهل العلم يقول: إن اللام في قوله: {لِّلْكَافِرِينَ} بمعنى "على"، وتعرفون أن حروف الجر تتناوب، وأن بعضها ينوب عن بعض، فتأتي اللام بمعنى "على"، {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا} [سورة الكهف: (١٠٠)]، أي: على الكافرين، كما يقول الله -تبارك وتعالى- في مواضع من القرآن: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ} [سورة الأحقاف: (٢٠)]، يعرضون على النار، فهم يعرضون على النار، وهي تعرض أيضاً عليهم، وقوله: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا} [سورة غافر: (٤٦)]، فمن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا} أي: على الكافرين عرضا، ليكون ذلك أعظم وأشد في عذابهم، حيث يرونها قبل مواقعتها فيصيبهم ما يصيبهم من الهول والفزع.

ثم قال مخبراً عنهم {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} **[سورة الكهف: (١٠١)] أي: تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال:** {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} **[سورة الزخرف: (٣٦)]، وقال ههنا:** {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} **[سورة الكهف: (١٠١)]، أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه.**

قوله: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي}، أي: تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، وقد ذكر ابن القيم –رحمه الله– أن قوله –تبارك وتعالى-: {فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي} يتضمن معنيين:

المعنى الأول: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله وأدلة توحيده، وعجائب قدرته، فهم لهم أعين كما قال الله -عز وجل- {لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا} [سورة الأعراف: (١٧٩)]، وإنما ينظرون إلى هذه الآيات العظام، ودلائل القدرة بنظر البهيمة التي لا تعقل.

---

[٣] - الحديث جاء عند مسلم، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبُعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٤/٢١٨٤)، برقم: (٢٨٤٢)، من حديث عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)).

المعنى الثاني: أن عين القلب في غطاء عن فهم القرآن، فهي محجوبة، ليس لهم بصائر، فالعين وإن كانت مفتوحة تنظر إلا أنه نظر لا ينتفع به صاحبه، ولا يحصل له الاعتبار والاتعاظ بما تضمنه هذا القرآن من الزواجر والمواعظ، والهدايات والأمثال، فأعينهم -يعني أعين القلوب- في غطاء عن فهم هذا القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب على ما يذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يكون أولاً، فإذا حجب القلب فإن ذلك يسري إلى العين فلا تبصر ما ينتفع به، لا ينتفع بها صاحبها، وهذا شيء مشاهد، فأكثر الناس سياحة في الأرض هم الكفار كما نرى، بل إن ذلك من الأمور المعروفة المشتهرة عنهم، ومع ذلك لا ينتفعون ولا يتعظون بما يشاهدون، ولربما جاءوا إلى أماكن المعذبين وبقايا الأمم المهلكة ولم يحرك ذلك فيهم ساكناً، فهؤلاء أعينهم في غطاء عن ذكر الله، ما ذكره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- لا ينكر، فإن من كانت عينه في غطاء عن ذكر الله -عز وجل-، فإنما ذلك لأن قلبه قد حجب عن الهدى، وصار على البصر غشاوة، فهي أمور متلازمة، كما قال الله -عز وجل-: {خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ} [سورة البقرة: (٧)].

ثم قال: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء} [سورة الكهف: (١٠٢)] أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك، وينتفعون به؟ {كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [سورة مريم:(٨٢)] ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً.

قوله: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}[سورة الكهف: (١٠١)]، الذكر مصدر وهو مضاف، فيحتمل أن تكون الإضافة من باب الإضافة إلى الفاعل، ويحتمل أن تكون من باب الإضافة إلى المفعول، كما في قوله تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [سورة طـــه: (١٢٤)]، يحتمل أن يكون أي عن ذكر ربه -تبارك وتعالى-، فمَن لم يذكر الله، فإن قلبه يظلم، وصدره يضيق، ومعيشته تتكدر وتتنغص، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت))[٤]، ويحتمل أن يكون المراد {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} أي مذكوري، فيكون من باب الإضافة إلى الفاعل، والأول من باب الإضافة إلى المفعول.

ومذكور الله -تبارك وتعالى- هو القرآن، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [سورة الحجر:(٩)].

وكذلك في الآية الأخرى، في قوله: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [سورة الزخرف: (٣٦)]، فالذكر هنا مضاف إلى الاسم الظاهر، يعني لم يذكر ربه، ويحتمل أن يكون المراد من يعش عن ذكر الرحمن يعني عن مذكوره وهو القرآن، لا يقرؤه ولا يعمل به ولا يتدبره ولا يتحاكم إليه، فهذا تحتمله الآية.

وفي قوله: {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي}، أضافه إلى العين بمعنى أنهم في غطاء عن ذكري لا يقرءونه، كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله، وابن القيم -رحمه الله- يربط ذلك بالقلب ويقول: عين القلب.

---

[٤] - رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله -عز وجل- (٥ / ٢٣٥٣)، برقم: (٦٠٤٤).

قوله: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}؛ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، والسبب في ذلك هو أن القلوب قد طبع عليها والأسماع كذلك، كما قال الله تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ} [سورة البقرة: (٧)]، فإذا حصل هذا الختم والطبع، فإن الإنسان لا يستطيع أن يسمع السماع الذي ينتفع به، وذلك جزاء وفاقا، لما أعرضوا وكابروا حصل لهم ذلك عقوبة من الله -تبارك وتعالى-، وقوله: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، لا شك أنه أدل وأبلغ في المعنى مما لو قيل: وكانوا لا يسمعون؛ لأن الذي لا يسمع ربما يُرفع ويجهر له بالصوت، فيسمع، لكن الله -عز وجل- قال: {وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، فمهما صك آذانهم من الحجج، والبينات، والبراهين، وآي القرآن فإنهم لا ينتفعون بذلك، وأقرب مثال على هذا أهل النفاق يسمعون القرآن، ويصلون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويرون ما يرون ويشاهدون ما يشاهدون ولا يغير ذلك فيهم قليلاً ولا كثيراً، وإذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم يرون الوحي ينزل {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا} [سورة محمد: (١٦)]، {أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا} [سورة التوبة: (١٢٤)].

قوله: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} [سورة الكهف: (١٠٢)].

أي: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك وينتفعون به، وليس المقصود به أنهم يتخذون المؤمنين أولياء، والهمزة هنا للإنكار، وليس المقصود أنهم يوالون المؤمنين، وإنما المقصود العبادة من دون الله - تبارك وتعالى- كعبادة الملائكة، والذين عبدوا المسيح -عليه الصلاة والسلام-، أو الذين عبدوا مَن عبدوا من الصالحين، ونحو ذلك. فالكفار كانوا يعبدونهم ويقولون: {هَؤُلَاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ} [سورة يونس: (١٨)]، {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [سورة الزمر: (٣)]، والله -عز وجل- ينكر عليهم هذا، {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء} [سورة الشورى: (٩)].

قوله: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي} [سورة الكهف: (١٠٢)]، العبودية إما أن تكون بمعنى عبودية القهر، ومنه قوله: {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [سورة مريم: (٩٣)]، وهذه العبودية عامة يدخل فيها الكفار والطواغيت.

وإما أن تكون إضافة العبودية هنا إضافة تشريف -كما قد يتبادر إلى الذهن- كما في قوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [سورة الحجر: (٤٢)]، فإذا قيل إن الإضافة هنا إضافة تشريف فمعنى ذلك: أن ذلك يرجع إلى ما عُبد من دون الله -عز وجل- من الأنبياء والملائكة والصالحين، وكون المعبودين يكفرون بعبادة العابدين، هذا عام فيمن كان من الأنبياء والصالحين وغيرهم.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء} [سورة الكهف: (١٠٢)]، مقدر محذوف، بعضهم يقدره، أي: ولا أعاقبهم العقاب الشديد؟ كلا، بل سأعاقبهم على ذلك، يعني أفحسبوا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء وأتركهم ولا أعاقبهم؟، كلا، سأعاقبهم على ذلك العقاب الشديد، ويحتمل أن يكون {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء}، وأن ذلك ينفعهم، ويجدي عنهم؟، كلا، لا ينفعهم بل يضرهم.

قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا}، أي: أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلا، ففسرها بالمنزل، فالنُزل بعضهم يفسره بالمنزل، وبعضهم يقول: النُزل هو ما يعد للضيف من القِرى والكرامة، لكن جهنم كيف تكون قرى للضيف، ونُزلاً له ؟ الجواب: ذلك من باب التهكم بهم، كما قال الله -عز وجل-: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الانشقاق: (٢٤)]، والبشارة إنما تكون بالإخبار بما يسر خاصة، فيظهر أثر ذلك على بشرة المبشر.

وإعداد جهنم نزلا لهم من باب التهكم، وقد قال الله –تبارك وتعالى– عن شجرة الزقوم: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} [الصافات : ٦٢].

قوله: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا} [سورة الكهف: (١٠٣-١٠٦)].

روى البخاري عن عمرو عن مصعب قال: سألت أبي -يعني سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- عن قول الله: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالاً} أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً -صلى الله عليه وسلم-، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، فكان سعد -رضي الله عنه- يسميهم الفاسقين[٥].

وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد: هم الحرورية؛ ومعنى هذا عن علي -رضي الله عنه- أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هي أعم من هذا، فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى، وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود، كما قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً}، وقال تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا} [سورة النـــور: (٣٩)]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم}، أي: نخبركم {بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالاً}، ثم فسرهم، فقال: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف: (١٠٤)]، أي: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة {وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [سورة الكهف(١٠٤)]، أي: يعتقدون أنهم على شيء، وأنهم مقبولون محبوبون.

ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله –تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} [سورة الكهف: (١٠٤)]، هو الذي عليه المحققون من المفسرين، والذي نُقل عن بعض السلف -رضي الله عنهم- من أن المراد بهم الحرورية، أي: الخوارج، وقال بعضهم: هم الرهبان، وقال بعضهم: هم كفار أهل مكة، فهذا من باب التفسير بالمثال -والله تعالى أعلم-، ولا يقصدون به الحصر،

---

[٥] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (١٧٥٨/٤)، برقم: (٤٤٥١).

فكل من كان بهذه الصفة ضل سعيه وعمله واعتقاده في هذه الحياة الدنيا، وهو يرجو من هذا العمل، وهذه العبادة، وهذا الاعتقاد شيئاً، فأولئك الذين يعبدون المسيح -عليه الصلاة والسلام-، أو يعبدون بوذا أويعبدون الأصنام، أو يعبدون الأبقار، ويقدمون لها ما يستطيعون، وقد يكون الرجل في غاية الفقر، ويجمع الأموال السنين الطويلة، ثم يقدم القرابين لهؤلاء المعبودين من دون الله -عز وجل- يريد التقرب ويظن أنه على شيء، ولربما أحرق نفسه تقرباً، وبعضهم لربما قطع عضواً من أعضائه تقرباً، كما نقرأ ونسمع، فهذا شاب يقطع لسانه للإله في الهند، يشكو فقره وفقر عائلته، إلى غير ذلك من الأشياء العجيبة، فهؤلاء يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، يظن أنه بهذا يحصل له مطلوبه من الزلفى والتقرب، ويؤجر على ذلك ويثاب، وتكون له الآخرة، وهذا يدل على أن الكفار الذين يصيرون إلى النار قد يعتقد الواحد منهم اعتقاداً جازماً أنه على حق في اعتقاده الباطل، وليس كل هؤلاء الكفار يعلمون أنهم على باطل، وأن الحق في الإسلام، فبعض هؤلاء قد يكون تشرب هذا الباطل، وتغلغل فيه، فيقدم نفسه رخيصة في سبيله، ولا يشك فيه قليلاً ولا كثيراً، فهؤلاء إلى النار، طالما أنه بلغتهم الدعوة، وهؤلاء الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ويمكن أن يفسر قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} بأنه ذهب واضمحل؛ لأن هذا أحد المعاني التي تأتي لها كلمة ضل في لغة العرب، ضل واضمحل، كما يقال ضل السمن في الطعام، يعني: ذهب واضمحل، وهذا كثير في كلام العرب، وتأتي ضل بمعنى الذهاب عن حقيقة الشيء، كما قال إخوة يوسف لأبيهم -عليه الصلاة والسلام-: {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}[سورة يوسف: (٩٥)]، فلم يقصدوا أنه ضال وإلا لكانوا كفارا، ومنه قول الله -تبارك وتعالى-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [سورة الضحى: (٧)] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن على دين قومه قبل نبوته، فمعنى الضلال هنا: الذهاب عن حقيقة الشيء، والمعنى: الذهاب عن حقيقة الوحي.

وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ} [سورة الكهف: (١٠٥)] أي: جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقام على وحدانيته وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [سورة الكهف (١٠٥)] أي: لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير.

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرءوا إن شئتم {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا} [سورة الكهف(١٠٥)]))[٦] وقد رواه مسلم.

وقوله: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا} [سورة الكهف: (١٠٦)] أي: إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزءوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

---

[٦] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف (١٧٥٩/٤)، برقم: (٤٤٥٢) ، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢١٤٧/٤)، برقم: (٢٧٨٥).

إذا تتبعت النصوص تجد أنها تدل على وزن الناس، فإنها تدل على أن صاحب العمل يوزن كما دل عليه هذا الحديث، فهذا الرجل البدين الضخم السمين يوضع في الميزان فلا يزن عند الله جناح بعوضة، ودلت النصوص أيضاً على وزن الصحف التي فيها الأعمال، كما في حديث البطاقة، توضع الدواوين، دواوين السيئات، وتوضع البطاقة في الكفة الأخرى، فتطيش تلك الدواوين، ودلت النصوص على وزن الأعمال، قال سبحانه: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [سورة الأعراف: (٨-٩)]، وقال تعالى: {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة: (٧-٨)]، وكل ذلك واقع، فالناس يوزنون، والصحف توزن، والأعمال توزن.

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}، يحتمل ما قاله ابن كثير -رحمه الله-، أي: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير، يدل عليه الحديث (يؤتى بالرجل فيوزن ...) ويحتمل أن يكون {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}، أي: لا نقيم لهم قدراً ولا اعتباراً فلا يُعبأ بهم، فلا شأن لهم، تقول: فلان لا يُقام لكلامه وزن، لا وزن لكلامه، بمعنى لا اعتبار به ولا قدر له، وهذا أسلوب عربي معروف، ويمكن أن يكون بين المعنيين ملازمة.

قال ابن القيم -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا} [سورة الكهف: (١٠٣)]: "وهذا حال أرباب الأعمال التي كانت لغير الله -عز وجل-، أو على غير سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وحال أرباب العلوم والأنظار التي لم يتلقوها عن مشكاة النبوة، ولكن تلقوها عن زبالة أذهان الرجال، وكناسة أفكارهم، فأتعبوا قواهم وأفكارهم وأذهانهم في تقرير آراء الرجال، والانتصار لهم، وفهم ما قالوه، وبثه في المجالس، والمحاضر، وأعرضوا عما جاء به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- صفحا، ومن به رمق منهم يعيره أدنى التفات طلبا للفضيلة، وأما تجريد اتباعه وتحكيمه، وتفريغ قوى النفس في طلبه وفهمه، وعرض آراء الرجال عليه، ورد ما يخالفه منها، وقبول ما وافقه، ولا يلتفت إلى شيء من آرائهم وأقوالهم، إلا إذا أشرقت عليها شمس الوحي، وشهد لها بالصحة فهذا أمر لا تكاد ترى أحدا منهم يحدث به نفسه، فضلا عن أن يكون آخيته ومطلوبه، وهذا الذي لا ينجي سواه، فوارحمتا لعبد شقي في طلب العلم، واستفرغ فيه قواه واستنفد فيه أوقاته، وآثره على ما الناس فيه، والطريق بينه وبين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مسدود، وقلبه عن المرسل -سبحانه وتعالى- وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والتنعم بحبه والسرور بقربه مطرود ومصدود، وقد طاف عمره كله على أبواب المذاهب فلم يفز إلا بأخس المطالب، سبحان الله إن هي والله إلا فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرق قصدها"[٧].

هذا مثل الذين اشتغلوا بعلوم الفلاسفة، وأعرضوا عن الوحي، وأخبارهم في هذا كثيرة، أحدهم يقول:

لقد طفتُ المعاهد كلها*** وسيّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر*** على ذقنٍ أو قارع سن نادم

---

[٧] - التفسير القيم لابن القيم، جمع وترتيب: محمد أويس الندوى (١٩٩/١)

وآخر يقول:

أضع الملحفة على وجهي وأقلب النظر، وأقارن بين أقوال هؤلاء وهؤلاء حتى يستبين الصبح، ولم يتبين لي شيء.

وآخر عند الموت يسأل من دخل عليه يقول له، ما تعتقد؟، يقول ما يعتقده المسلمون، قال: وأنت مطمئن القلب بذلك؟، فقال: نعم، قال: فاحمد الله على هذه النعمة؛ فإني والله لا أدري ما أعتقد، والله لا أدري ما أعتقد، والله لا أدري ما أعتقد، ويبكي، هذا عند موته، عند الاحتضار.

والجويني كلامه في هذا معروف، يقول لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، وها أنا أموت على عقيدة العجائز، أرجع وما حصلت شيئاً.

والثاني الذي يقول -المنقول عن الشهرستاني-:

نهاية إقدام العقول عقال*** وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا*** وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا*** سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من جبال قد علا شرفاتها*** رجال فزالوا والجبال جبال

فهذه النتيجة التي خرجوا بها بعد العمر الذي قضوه في قيل وقال، ومجادلات، وكل يوم في عقيدة، وكل يوم في مذهب ورأي، خرجوا بالخسارة والحيرة، والله المستعان، قل مثل ذلك في غيرهم، من يقرأ في أخبار الرهبان مثلاً، راهب يقف أربعين سنة في بئر لا ينام -يعني على الأرض-، ولا يجلس ولا يستريح ولا يأكل من الطيبات، أربعين سنة، لا يغتسل ولا يقص أظفاره ولا شعره، يطلب ما عند الله -عز وجل- بهذا، وبعضهم يهيم على وجهه يأكل من نباتات البرية مع الوحش، كأنه بهيمة، يطلب بهذا ما عند الله -عز وجل- وأشياء عجيبة وأمور يحمد الإنسان ربه -تبارك وتعالى- أن هداه للإسلام، ويسأله التثبيت، وأن يبصره للحق، وأن يدله على ما اختلف فيه من الحق بإذنه، والله أعلم.

(سؤال)

درسنا أن الشمس ثابتة، وأن الأرض هي التي تدور حول الشمس.

(الجواب) سبق الكلام على هذا، أن الله –عز وجل– يقول: **{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}** [سورة يـــس: (٣٨)]، فمن يقول: إن الشمس ثابتة فهو مكذب للقرآن.

(سؤال)

يقول سمعت أحد المشايخ يفسر قوله تعالى: **{لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}** [سورة الكهف: (٩٠)] أنه يمكن أن الشمس ما تغرب عندهم، كما أنه يكون في بعض البلدان النهار أطول من الليل جداً، وفي بعضها يكون قصيراً، أليس هذا التفسير له وجاهته، وهل قال به أحد؟

(الجواب)

لا أعلم أحداً قال بهذا من السلف، وليس هذا التفسير بصحيح؛ لأن الله -عز وجل– قال: **{لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا}**، والقرآن عربي ونزل بلغة العرب وينبغي أن يفهم بما يفهمه العربي مِن خطاب مَن خاطبه،

فليس المعنى أنها ما تغيب، فإن من غابت عنه الشمس لا يقال إنه قد جعل له من دونها سترا، وإنما يكون ذلك بالاكتنان عنها، وبوجود ما يستره ويحجبه، ويكنه من هذه الشمس، هذا هو المراد، ولذلك نحن لا نقول في الليل نحن في ستر من الشمس قد جعل لنا، هذه عجمة، ولا حاجة لهذا التكلف في فهم هذه الآية أو غيرها، والله أعلم.

(مسألة)

دورات البرمجة العصبية متفاوتة منها ما هو متلقى من فلسفات تجمع بين حق وباطل، والحق تعرفه العجائز، فمثل هذه البرمجة العصبية شرها أكثر من نفعها، كثير من الذين يدرسونها لا يستبينون ما فيها، وقد تكلمت على هذا في بعض المناسبات، والله المستعان وأظنها منعت الآن، يمنع إقامة دورات البرمجة العصبية، لكن مساكين الذين يتهافتون عليها، وبذلوا الأموال، ويظنون أنهم سيخرجون بطائل، إلى الله المشتكى، ففيها من الشر ما الله به عليم، وحتى كبيرهم الذي علمهم السحر سمعت أنه رجع عنها وتنصل منها.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الكهف (١٦)

من قوله تعالى"إن الذين آمنوا" الآية ١٠٧ إلى قوله تعالى"ولا يشرك بعبادة ربه أحدا" الآية ١١٠

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [سورة الكهف(١٠٧- ١٠٨)] **يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به أن لهم جنات الفردوس.**

فقال أبو أمامة -رضي الله تعالى عنه-: الفردوس: سرة الجنة.

وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

وقد روي هذا مرفوعاً عن سَمُرَة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الفردوس ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها))[١].

وروي عن قتادة عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً بنحوه.

روى ذلك كله ابن جرير -رحمه الله.

وفي الصحيح: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة))[٢].

وقوله تعالى: {نُزُلًا} [سورة الكهف(١٠٧)] **أي: ضيافة، فإن النزل هو الضيافة.**

وقوله: {خَالِدِينَ فِيهَا} [سورة الكهف(١٠٨)] **أي: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً.**

{لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [سورة الكهف(١٠٨)] **أي: لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، وفي قوله: {لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}** [سورة الكهف(١٠٨)] **تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو**

---

١ - هو بهذا اللفظ في صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ٣٨-١١) ورواه ابن جرير في تفسيره (٣٠/١٦) وقال الألباني: "قلت: وهذا إسناد ضعيف، لعنعنة الحسن وهو البصري، وضعف سعيد بن بشير، لكن الحديث صحيح، فإن له شواهد" انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩/٥).

٢ - أخرجه البخاري بنحوه، في كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي (٤/ ١٦- ٢٧٩٠) وفي كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} [هود: ٧] {وهو رب العرش العظيم} [التوبة: ١٢٩] (٩/ ١٢٥-٧٤٢٣).

مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلاً.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا} [سورة الكهف(١٠٧)] الفردوس بعض أهل العلم يقول: معناه في كلام العرب: الشجر الكثير الملتف، وغالبه من العنب، وبعضهم يقول: إن هذه الكلمة في أصلها غير عربية، وإنها كلمة رومية، بمعنى البستان.

وعلى كل حال معروف كلام أهل العلم فيما يسمى بالمعرّب، هل يوجد شيء من كلام الله -عز وجل- فيما يتعلق بالأسماء المنكّرة غير الأعلام بغير العربية أو لا ؟ مع أن أهل العلم يتفقون ويجمعون على أنه لا يوجد في القرآن شيء من التراكيب بالأعجمية، وأما الأسماء -أسماء الأعلام- فإنها تقال كما هي، بعض أهل العلم يقول: هي مشتركة بين اللغات، وبعضهم يقول: منها ما هو عربي، ومنها ما هو أعجمي، وأسماء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- التي في القرآن غير عربية، سوى أربعة: محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشعيب وصالح وهود، وتبقى الكلمات المنكّرة مثل كلمة فردوس ومشكاة وإستبرق وما إلى ذلك، وهكذا قال صاحب المراقي:

ما كان منه مثل إسماعيل *** ويونس قد جاء في التنزيل

إن كان منه واختلاف الأكثر *** والشافعي النفي للمنكّر

المنكّر يعني: مثل: فردوس ومشكاة وإستبرق وسندس.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "والفردوس اسم يقال على جميع الجنة، ويقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات، وأصل الفردوس البستان، والفراديس البساتين، قال كعب: هو البستان الذي فيه الأعناب، وقال الليث: الفردوس جنة ذات كروم، يقال: كرم مفردس أي معرش.

وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، وهو اختيار المبرد، وقال: الفردوس -فيما سمعت من كلام العرب- الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وجمعه الفراديس؛ قال: ولهذا سمي باب الفراديس بالشام، وأنشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا *** يا بُعد نيرين من باب الفراديس

وقال مجاهد: هذا البستان بالرومية، واختاره الزجاج، فقال: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، قال: وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين، قال حسان:

وإن ثواب الله كل مخلد *** جنان من الفردوس فيها يخلد"[٣].

قوله: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [سورة الكهف(١٠٩)].

---

[٣] - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ١٠٠).

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، {لَنَفِدَ الْبَحْرُ} [الكهف(١٠٩)] قبل أن يفرغ كتابة ذلك {وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ} [الكهف(١٠٩)] أي: بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جراً، بحور تمده، ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي} [الكهف(١٠٩)].

يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

قوله -تبارك وتعالى-: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي} [الكهف(١٠٩)] يقول ابن كثير -رحمه الله-: مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله، والمداد معروف، أصل هذه المادة: "المدد" تدل على مجيء الشيء على الزيادة شيئاً فشيئاً، مجيء الشيء متتابعاً، يقال: هذا مدد في الجيش، ومدد من الطعام، ومداد القلم؛ لأنه يمد الكاتب بما يحصل به الكتابة.

وكلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه. وعبارات كثير من المفسرين قريبة من هذا، يعني: الذي يكتب به الثناء على الله -عز وجل-، ودلائل القدرة، وما أشبه ذلك.

والإضافة هنا في قوله: {قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي} [سورة الكهف(١٠٩)] فهي كلماته -تبارك وتعالى-، وظاهر هذا أنها الكلمات الصادرة منه، وكلماته -تبارك وتعالى- نوعان، الكلمات الدينية وهي آياته المتلوة، والثاني: هي كلماته الكونية التي يحصل بها تكوين الأشياء وإيجادها، فهذه كلماته -تبارك وتعالى-، فتفسير ذلك بأنه ما يثنى به على الله أو نحو ذلك قد يكون خلاف ظاهر القرآن، فإن ذلك لا يقال عنه إنه كلمات الله، وإنما كلماته ما صدر عنه -تبارك وتعالى.

قوله: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف(١١٠)].

يقول تعالى لرسوله محمد -صلوات الله وسلامه عليه-: {قُلْ} لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: {إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ} [سورة الكهف(١١٠)] فمن زعم أني كاذب فليأتِ بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم: {أَنَّمَا إِلَهُكُمْ} [سورة الكهف(١١٠)] الذي أدعوكم إلى عبادته، {إِلَهٌ وَاحِدٌ} [سورة الكهف(١١٠)] لا شريك له، {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ} [سورة الكهف(١١٠)] أي: ثوابه وجزاءه الصالح، {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا} [سورة الكهف(١١٠)] أي: ما كان موافقًا لشرع الله، {وَلَا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [سورة الكهف(١١٠)] **وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله -صلى الله عليه وسلم.**

روى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: ((الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟))[٤].

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري -وكان من الصحابة رضي الله تعالى عنه وعنهم- أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة، ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك في عمل عملَه لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك))[٥] **وأخرجه الترمذي وابن ماجه.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** [الكهف(١١٠)] هذه الآية -كما مضى في بعض المناسبات- تضمنت شروط قبول العمل الثلاثة وهي: التوحيد، والله لا يقبل من غير أهل التوحيد، لا يقبل من المشركين، والإخلاص لله -عز وجل-، فإن الرياء خلاف الإخلاص، وهو من الشرك، وفرق بين هذا وهذا، فرق بين الشرط الأول الذي هو التوحيد، وفرق بين الشرط الثاني الذي هو الإخلاص، فالإخلاص من التوحيد إلا أن المقصود بالأول أن يكون الإنسان موحداً، أي: ليس بمشرك، فإذا عمل اليهودي أو النصراني أو الوثني عملاً أراد به وجه الله وحده لا شريك له فإنه لا يقبل منه؛ لأنه ليس على اعتقاد صحيح، وأما الإخلاص فقد يعمل المسلم العمل ولكن يداخله الرياء فلا يقبل، فلابد من الإخلاص.

والشرط الثالث: هو المتابعة للنبي -صلى الله عليه وسلم-؛ وذلك أن الله قال: **{فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}** [الكهف(١١٠)] وهو الصواب الذي تابع فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وهذا كما في أول السورة: **{وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}** [الكهف(٢)] فذكر الإيمان وذكر العمل الصالح.

---

٤ - أخرجه أحمد (٣٩/ ٣٩- ٢٣٦٣٠) وصححه الألباني في الصحيحة (٩٥١) وفي صحيح الترغيب (٢٩) وصحيح الجامع الصغير (٣٢٣/١).

٥ - أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٤/٥-٣١٥٤) وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة (١٤٠٦/٢- ٤٢٠٣). وأحمد (١٦١/٢٥- ١٥٨٣٨).